
التابع

التابع (رواية)

أحمد عبد المجيد

■ الطبعة الأولى .... يوليو 2017

تصميم الغلاف: كريم آدم

رقم الإيداع: 13936 / 2017

الترقيم الدولي: 8 - 010 - 824 - 977 - 978



186 عمارات امتداد رمسيس 2 – أمام أرض المعارض – مدينة نصر

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing



رواية

أحمد عبد المجيد

الرواق للنشر والتوزيع

إلى بسنت وعليّ

اللذين أتعلم معهما، كلّ يوم، كيف أعود طفلاً من جديد

القسم الأول

(١)

لم يحدث من قبل أن رجلاً صادق نملة، فلماذا تُصرّ على ذلك؟

حتى وأنت تستمع إلينا، تمتدّ أصابعك دون أن تدري إلى الحصاة أمامك، ترفعها وتبسط إصبعك للنملة القابعة تحتها، مغريًا إياها بالصعود.

صغير، أنت صغير، وكذلك النملة، ربما هذا ما جمع بينكما.

في الكوخ، كنت تترك النملة تجري على كفّيك، بينما ترتكن بظهرك إلى الجدار الفاصل بين الحجرتين، حجرتك وحجرة شادية، تستمع لغنائها وتُفكّر: لماذا صوتك ليس شجيًا كصوتها. ذات مرة حاولت أن تغنّي، وحدك في حجرتك، ثم شعرت أن صوتك لا يصلح، دائمًا يبدو لك ما تقوم به أقلّ مما يجب.

تمشي في الحجرة بحرص، وعندما تأتي شادية تُحذّرها كي لا تدهس المخلوقات الصغيرة. النمل يسير في طابور طويل ممتدّ من جحره في الجدار الفاصل بين الحجرتين، حجرتك وحجرة الجدّ، وحتى الثقب الصغير أسفل نافذتك. تتابع طابوره الآتي من الخارج، وتسرح فيما وراء النافذة، ما الذي وجده النمل في الخارج ليقضي جلّ وقته هناك؟

تتسلّل من الحجرة، تنتهز فرصة غياب الجدّة لتطعم دجاجاتها، فتخطف علبة العسل من المطبخ. تراك شادية، فتترك المشط الذي تُسرّح به شعرها أمام المرآة، وترمقك بابتسامة متواطئة. تعود للحجرة، فتسكب قليلاً من العسل على الأرضية أمام النمل؛ كلوا يا صغاري، ألستم تحبّون العسل؟ يتكاثر النمل حول البقعة التي صنعتها، فترقبهم راضيًا. ترجع للمطبخ بسرعة وتعيد العلبة لمكانها. تقول شادية بينما تمرّ بها:

«أنت تفسدهم. الأفضل أن يعتمدوا على أنفسهم».

فتفكّر في كلامها قليلاً، وتمضي. في الحجرة، تلعب مع النملة، تتركها تجري فوق كفّيك، وتسرح قليلاً فتجدها غافلتك واندفعت فوق ذراعك، تنفضها بذعر وتنهض من مكانك، تقف أمام النافذة تتابع الجدّ بينما يعمل في الحقل، على بعد أمتار، أو يغيب خلف الكوخ ليحضر لكم الماء من البئر، الذي لم تره من قبل. تتأمّل العالم بالقدر الذي يسمح به اتساع النافذة، الحقل وغابة الأشجار، العصافير التي تصلك أصواتها من بين الأغصان، السماء التي تمتدّ بعيدًا عن ناظريك، الهواء الذي يعبث بوريقات الشجر الساقطة، وبالكاد

يقوى على هزّ الأغصان؛ كلّها تبدو صورًا بعيدة، الزجاج والخشب يفصل بينك وبينها.

ينتبه لك الجدّ، فيترك ما يقوم به ويرمقك بنظرة غاضبة، فترتبك وتبتعد عن النافذة، وتُفكّر: هل شادية صادقة؟

(٢)

شادية لم تَصدُقْكَ مرتين، أولاهما كانت منذ أيام، قبل أن تأتينا، عندما مرّ الغول أمامك، وتبادلتما النظر للحظة. المرة الثانية كانت سبب قدومك إلينا، سنخبرك بها في حينها، فلا تستبق الحوادث، ودعنا في المرة الأولى.

أنت مندهش لأننا نعرف كلّ هذا؟ تكتم الدهشة، وتتجاهل رائحة الذئب الراقد على بعد خطوات، والجيفة التي بدأت تنتن؛ وتستمع إلى صوتنا بأدب، كما كنت تفعل مع الجدّ، لكنّنا نعرف أن داخلك يعجّ بالأسئلة.

صغير، أنت صغير، وربما هذا ما قرّب بينك وبين النملة، صغرها يشعرك بالكبر، فترتاح نفسك ولو قليلاً. أما شادية فتشعرك دومًا

بأنها تسبقك، تبلبلك، مهما حاولت أن تُدهشها تبقى ثابتة، أليست هي سبب وجودك بيننا الآن؟

في ليلة الغول الأولى أصرّت أن تتبعها، أيام وهي تُغويك بالخارج، لا تيأس أمام تمنّعك، ترنو إليك بنظرة رجاء تضعف أمامها، تطمئنك بأنكما ستعودان سريعًا، قبل الفجر ستكونان في الكوخ، لن يعرف الجدّ. لكنّك كنت تدرك أن الجدّ لا يخفى عليه شيء، سيعرف حتى لو لم تخبره. تطلعت إليك حينها بنظرتها التي تتوه فيها، وقالت:

«أنت من لا تجيد ستر وجهك أمامه، ملامحك تكشفك، الكذب ضروري في بعض الأحيان!»

أليست تلك كلماتها؟ أم إننا أخطأنا استرجاعها؟ هي كما قالتها بالحرف، نعيدها على مسامعك بنفس نبرتها، كأنّنا نتلو عليك من كتاب، أو نصِف صورتك كما نراها مطبوعة أمامنا في صفحة السماء، عندما رمقتها بارتياع. الكذب؟! كم هي قاسية، كلّ ما تعلمته، كلّ ما تعرفه، تأتي هي وببضع كلمات تذروه هباءً، تتركك عاريًا لا تجد ما تلتحف به.

ألم تشعر حينها أنها تورطك في ما لا تقدر عليه؟ بلى شعرت، فقلت لها متردّدًا:

«لكن.. الغول...»

فجزّت على أسنانها، وهمستْ بصوت كالفحيح:

«الغول في رأسك فقط!»

كيف والجدّ قال إنه موجود؟ الغيلان موجودة، تحيط بنا وتنتظر

الفرصة لتنقضّ علينا، الجدّ يعرف ما يقول، ما كان ليقوله إن لم يكن واثقًا منه.

«هل ستُصدّقني أم ستُصدّق جدّك؟»

شادية أم الجدّ؟! جمّدك السؤال، نفس الجمود الذي سيصيبك بعد دقائق قليلة، عندما تتبادل النظرات مع الغول، وسيبدو السؤال حينها بعيدًا.

«لكن.. لو خرجنا من الكوخ سنخالف الوصايا!»

هتفت بك، متناسية أن صوتها قد يوقظ النائمين:

«أأنت أحمق؟! فلتحترق وصايا جدّك، أو ليأكلها الدجاج، لا يهمني!»

ثم لان صوتها، وقالت كأنّها تُهدّدك:

«إن لم تأتِ معي سأذهب وحدي، لن أبقى طوال عمري في الكوخ!»

رأيت الإصرار في عينيها، فلم تملك إلا أن تتبعها، كيف تتركها تخرج وحدها؟ هل يمكن للحياة أن تستمرّ إن أصابها سوء؟ قد لا تملك لها نفعًا، إلا أنك على الأقل ستطمئن إلى عودتها بسلام، بدلاً من الانتظار في حجرتك والقلق يأكلك حتى الصباح.

نظرة الفرح في عينيها أنعشتك، أشعرتك أن كلّ شيء يهون من أجلها، مخالفة الوصايا والخروج إلى الغيلان وإغضاب الجدّ. مضيت معها وأنت تصارع الخوف من أن تندم لاحقًا.

أمسكتْ يدك، كان في هذا الكفاية لتتبعها كالمنوَّم، وقادتك نحو الباب. تتسلّل بخفّة كقطّتها السوداء، وترمقك محذّرةً مع كلّ خطوة خرقاء تخطوها بلا حرص.

عند الباب توقّفتْ، فرجوتَ أن تتراجع عما تنويه، لكنّها التفتتْ إليك:

«لن أطلب منك أن تكذب عليه، فقط أخفِ ما فعلنا. لا تتكلّم. لا تذكر شيئًا».

مدّتْ يدها إلى الباب، ثم توقّفتْ من جديد.

ـ «مع ذلك، الكذب ليس دائمًا خطيئة كما أخبرك؛ بالكذب سترى ما وراء الباب!»

سلّطتْ عينيها على عينيك، فارتجفتَ وتسارعتْ أنفاسك.

ـ «عندما نعود، ستكذب إذا سألك؛ سيقرأ وجهك، لابدّ أنه سيفعل، وعندها إيّاك أن تخبره!»

تأخّرتَ في هزّ رأسك، تخيّلت نفسك أمامه لا تدري ما تقول، فبدا التوتر في عينيها.

ـ «إن لم تفعل فلن أكلمك ثانية!»

فهززت رأسك بقوّة موافقًا.

فتحت الباب بحذر، وأنت وراءها تتأمّل الفرجة التي انكشف عنها، أمعاؤك تتقلّص فتؤلمك، لا جدارن الآن تفصل بينك والخارج،

خلال لحظة واحدة ستكون للمرة الأولى هناك، حيث الظلام والذئاب والغيلان. لم تفتح الباب على اتساعه كما تخيّلتَ، اكتفتْ بما يسمح بمرور جسدها الضئيل وهي تسحبك وراءها. احتكّت ذراعك بالباب وأنت تعبره؛ فأجفلتَ. تتذكّر النافذة وصوت بندقية الجدّ واللهاث عند الباب، الذئاب أقلّ خطرًا من الغيلان، تسمع صوت الجدّ وهو يحذّرك مقطّبًا. تتطلع إلى ما حولك غير مصدّق، هذا ليس حلمًا، وإن بدا كذلك.

لفحك تيار هواء بارد فدارت رأسك، ومادت بك الأرض وأنت تخطو خطوتك الأولى عليها، ليست ممهّدة كأرض حجرتك. والسماء.. نفس السماء التي تراها طوال الوقت من حجرتك، لكن بدون زجاج النافذة بدت حقيقية، حيّة، تراقبك كما تراقبها، خُيّل إليك لوهلة أنك لو مددت يدك لأعلى فستقبض عليها وتشدّها إليك؛ تهديها لشادية وتحيط بها كتفيها.

شادية كانت وراءك تردّ الباب، تنتظرها لتأخذ بيدك وتقودك، لكن قبل أن تمدّ يدها إليك، وبينما ترمق حزام الأشجار حيث يبدأ الدغل، وقبل أن تتساءل عما قد تجدانه هناك؛ قبل أن تكتمل المشاعر الفيّاضة التي سمحت لها أن تملأ صدرك؛ مرّ بسرعة خاطفة وعبر في الظلام بين شجرتين.

لحظة واحدة التفت فيها وحدّق في عينيك مباشرة. في تلك اللحظة رأيت ملامحه كأنّه يقف أمامك، وجهه الذي يشبه وجوهكم، ملامحه المخيفة التي طالما تخيّلتها من حكايات الجدّ، نظرة عينيه المرعبة.

لو أنك همست لشادية محذّرًا كانت ستُطمئنك، ربما ستُقنعك أنك

تتخيّل، ترى فقط ما تخافه، تُربّت على يدك ثم تسحبك لتدورا حول الكوخ وتقتربا من الدغل، ربما تعبرانه لبضعة أمتار، ثم تعودان، وتظلّان طوال الأيام التالية تتهامسان بسرّ كما المشترك، لكنّك لم تفعل؛ اخترت بدلاً من ذلك أن تفقد السيطرة على نفسك وتصرخ بكلّ ما تملك من قوة:

«الغوووووووووووووووووووووووووووول!!»

شادية لم تكن صادقة، الخارج ليس آمنًا. ظللت تصرخ، وأثار صوتك الدجاج في الحظيرة خلف الكوخ، فانطلق يُقأقِئ، وفشلت شادية في كتم فمك. لم تسكت إلا وقبضة الجدّ القاسية تهبط على رأسك فتشدّك وتجرّك جرًا، أنت بيد وشادية بيد، إلى الداخل. أخذت ترتجف، لا تدري أبسبب الغول أم الجدّ، ولم تهدأ إلا بعد أن ألقاك في حجرتك.

ـ «في الصباح سيكون لي معك حديث طويل!»

لم تُصدّق أنه لم يضربك. تقوقعت فوق سريرك لا تجرؤ على رفع رأسك خشية أن يقع نظرك على النافذة، فتجد الغول هناك يحدّجك بعينيه الصارمتين.

وصلك صراخ شادية، والجدّة تهتف بلوعة:

«سامحها لأجل خاطري!»

والجدّ يصيح بغلّ:

«دعيني أؤدب تلك الملعونة وإلا أدبتُكِ مكانها!»

لم تنم ما بقي من الليل، وأنت تسأل نفسك: أكان عليك أن تدافع

عن شادية؟ تحاول مساعدة الجدّة في صدّ الضربات عنها؟ تتوسّل للجدّ، الذي تعلم أنه يحبّك، أن يعفو عنها؟ غير أنك لم تفعل. شعرت بالخزي، وأدركت أن جزءًا بداخلك سرّه أن ينصبّ سخط الجدّ على شادية لا عليك.

تلك كانت ليلة الهزائم، الليلة التي شعرت فيها أنك بالفعل صغير، ربما أصغر من النملة، النملة لا تترك رفيقتها وتفرّ هاربة، لا ترتاح لأن القدم العملاقة دهست رفيقتها وفوّتتها، وشادية لم تكن فقط رفيقتك، شادية كانت مستقبلك، من أجل ذلك خاطرت ووصلت إلينا، وجلست تستمع لما نقول.

انتصارك الوحيد، في تلك الليلة، كان تغلّبك على الخوف من عينيّ الغول الرابضتين عند النافذة. نهضت من السرير واقتربت من جدار الحجرة الأيسر، الجدار المشترك بين حجرتك وحجرة شادية، وألصقت أذنك علّك تسمع ما يطمئنك. تمنيت أن تسمعها تُغنّي، كما تفعل كلّ ليلة قبل أن تنام، ترفع صوتها وهي تعرف أنه سيصلك فتنام عليه، وتتجاهل صياح الجدّ لأن غناءها يزعجه ويقلق مضجعه. لم يصلك شيء، فقط كلَّ بضع دقائق تسمع مواء قطّتها، فيبدو حزينًا نائحًا، كأنّها تنعى صاحبتها. فكّرت أن تطرق الجدار، لو أنها ردّت الطَّرْق، فستعرف أنها تطمئنك؛ إلا أنك استحييت أن تُذكّرها بنفسك.

وعندما خرجت من حجرتك في الصباح متردّدًا، وجلست إلى مائدة الإفطار الذي أعدّته الجدّة بمساعدة شادية؛ لم تستطع أن ترفع عينيك في وجهها. اختلست النظر إليها، فراعك الازرقاق الذي ملأ وجنتها وأسفل عينيها. أدهشك رغم ذلك حرصها على إظهار عدم

الاكتراث بما حدث، مشّطت شعرها كعادتها، وتركته ناعمًا مسترسلاً على ظهرها، وحرصتْ أن تحمل عيناها نفس نظرة التحدّي المعتادة، رغم بقايا الدموع العالقة بها. تجنّبتك ونظرات الجدّ تتابعكما محذّرة. وعندما ناداك لتتبعه إلى حجرته؛ انتهزتْ شادية الفرصة، فمرّت بك وهمستْ بغيظ:

«غبي! لا وجود للغيلان يا أحمق، إنه قرد.. مجرّد قرد!»

(٣)

أكان قردًا حقًا؟

ربما كان كذلك، هذا ما ستميل إليه بعدما تفحص صور القرود في كتاب الموجودات، وتقارن بينها وبين الكيان المبهم الذي احتفظتْ به مخيّلتك. ستظلّ كذلك ليومين تاليين، إلى أن ترى الغول ثانية.

لكن دعنا الآن نعود للصباح الذي تحدّثت فيه مع الجدّ.

في ذلك اليوم جلست متهيبًا أمامه، تخشى أن ترفع عينيك كي لا تصطدما بعينيه، تتوقّع أن تهوي قبضته الغاضبة على رأسك في أيّ لحظة، كما فعل مع شادية. لم يضربك من قبل، إلا أن غضبه الهادر بالأمس جعلك تتوقّع أيّ شيء. ربما سيحرمك من أغلى ما لديك، لكن.. ما أغلى ما لديك؟ لا تعرف، إلا أنك تثق أنه يعرف، وسيحرمك منه.

جلستما كالعادة حول الطاولة الصغيرة التي أعدّها للدرس في ركن حجرته، انتظرت أن يبدأك بالكلام، فظلّ صامتًا ليزيد عذابك.

ـ «أنا.. شادية لم.. الخارج.. كنتُ فقط أودّ لو أن...»

تمنيت أن يتدخّل ويمنحك خيطًا تُكمل منه، يسألك، يوبّخك، يهاجمك؛ فتدافع عن نفسك وشادية، لكنّه لم يفعل. رفعت عينيك متردّدًا فإذا به يرمقك بجمود، ملامحه لا تشي بشيء مما يفكّر فيه أو ينويه.

ـ «هل أحضرت دفتر الوصايا كما طلبتُ منك؟»

أسرعت تناوله الدفتر الأبيض الذي وضعته في حجرك، مرحّبًا بقطع الصمت المُرهِق بينكما. تناوله وقلّب فيه قليلاً وعيناه تجريان فوق السطور، ثم أعاده إليك مفتوحًا على إحدى الصفحات.

ـ «اقرأ من هنا».

استعدته متوجّسًا، وأخذت تقرأ بصوت لا تستطيع السيطرة على ثباته:

«اليوم الثاني والخمسون بعد استيقاظي:

جلستُ إلى جدّي ومُؤدِّبي؛ فطلب مني أن أدوّن كلماته لأتذكّرها دومًا: حكى لي قصة الرجل الذي تحدّث إليه مواليدُ النور فأطلعوه على سرّ النجاة مما سيحلّ بقريته، أمروه ألا يشرب من ماء البئر، ويطلب من الناس ألا يفعلوا، وإلا سيحيق بهم الشرّ. الرجل استمع لوصيّة مواليد النور، لكنّ أهل قريته لم يصدّقوه. مع الأيام؛ جُنّ أهل القرية جميعًا

ما عداه، فعلم أن مواليد النور صَدَقوه، وعاش سعيدًا محتفظًا بعقله.

سألتُ جدّي إن كان مواليد النور يتحدّثون إلينا ويخبروننا بما علينا فعله، فأجابني أنهم يتخيّرون من الناس أصلحهم ويكلّمونهم. قال إن مواليد النور لا يتكلمون مباشرة كما نتكلم نحن، بل يُلقون بمُرادهم في رَوْع مختاريهم، وهم يخبروننا به. لذلك فكلّ ما في أذهان هؤلاء خيرٌ خالصٌ زرعه مواليد النور بأيديهم. أخبرني أن كلّ كلمة يقولها لي إنما جاءته من هذا الباب، لذلك عليّ حفظها جيدًا، ففيها سعادتي وصلاحي...»

قاطعك قبل أن تستطرد أكثر:

«وأنت خالفت وصاياي لك! بدلاً من أن تكون الرجل المنصت الخاضع، الذي نجا من الجنون، صرت واحدًا من أهل القرية الآبقِين!»

ـ «لكنّي يا جدّي لم أكن...»

ـ «أتعتقد أني أمنعك من الخروج لأني أحبّ التحكّم فيك؟ ألم أخبرك أن الغابة ملأى بالغيلان، وأنهم يتلهفون على خروجك ليفتكوا بك؟!»

همست بتردّد:

«لكنّه يا جدّي.. قد يكون مجرّد قرد!»

هتف غير مصدّق:

«قرد؟! تقول قرد؟! وما القرد؟! هل سنختلف على اسم الشيء

الخبيث الذي يتربّص بك بين الأشجار؟! غول أو قرد؛ لو لم أُدركك وأعود بك سريعًا لكنت الآن ممزّقًا ملقى في عرين ذلك الوحش!»

ـ «شادية تقول إن...»

ـ «لا تذكر تلك الملعونة مرة أخرى، هل تعرف ما الذي لم أقصصه عليك من قصة الرجل الخاضِع؟ أن امرأته وابنته أول من كذّباه، كانتا تسخران منه مع الساخرين من جيرانه. ابنته كانت تُقلّد كلامه وتهزل منه أمام صديقاتها لتُضحكهنّ. لو أنه سمع لهما، مثلما فعلت أنت، لكان الآن واحدًا من مجانين قريته. هاتِ دفتر الوصايا!»

وخطفه من بين يديك، وأنت ترمق ذاهلاً احمرار عينيه المفاجئ؛ وأخذ يقلّب فيه بعصبية حتى توقّف أمام إحدى الصفحات، وقرأ بسرعة وغضب:

«انظر، هنا: اليوم الثامن والعشرون بعد استيقاظي:

جلستُ إلى جدّي ومُؤدِّبي؛ فطلب مني أن أُدوّن كلماته لأتذكّرها دومًا: حكى لي قصة الفتى الطيب الذي طردته أمه من بيت أبيه، لأنه لم يكن راضيًا عن سلوكها. قال إن ذلك الفتى التقى حاكم القرية، فأُعجب به وقرّبه منه، وجعله القائم على شؤونه، حتى لقّبه الناس بساعد الحاكم الأيمن. الحاكم كان عادلاً، ينصر الرجال على زوجاتهن، لأن الزوجات كن قاسيات، تمامًا كأم الفتى الطيب. ضجّت النساء به، واجتمعن ذات يوم وقررن التخلص منه. وعندما دسسن السمّ في شرابه، لم يعلمن أن رجالهن سهروا الليل في قصره بعد أن دعاهم للتشاور في شؤون القرية، ودارت عليهم كؤوس الشراب.

لم يتبقَّ من رجال القرية سوى الفتى الطيب، الذي غلبه النوم في تلك الليلة، فلم يحضر اجتماع الرجال. شعر بالذنب تجاه الحاكم، وقرّر أن يقتصّ له، فمضى يمشي بين القرى ويحذّر الرجال من النساء، لكنّهم لم يستمعوا له واستخفّوا بكلامه. نساء تلك القرى سمعن بما فعلته أخواتهن في القرية الأولى، فقلدنهن، ودسسن السمّ لرجالهن. تساقط الرجال صرعى من قرية لأخرى، وحلّت اللعنة على جميع القرى، وكان ذلك بداية فناء البشر. لم يتبقَّ سوى النساء، ومن دون رجال لم تنجب النساء، وانتهى أمر البشر بعد جيلين.

لم ينجُ من ذلك سوانا نحن الأربعة، فأخذنا الجدّ وأسكننا بعيدًا عن ذلك الخراب، كي لا تصلنا اللعنة. حذّرني جدّي من النساء، قال إنه لا أمان لهنّ، فذكّرتُه مندهشًا أنه ليست معنا سوى جدّتي وشادية، فأكّد لي: إيّاك أن تثق بهما؛ إن طلبتا شيئًا افعل عكسه، فطلبات النساء لا تحمل إلا الهلاك. سألتُه: فلماذا حملتهما معك إلى أعماق الغابة، إن كانتا...»

توقّف قبل أن يكمل، والتفت إليك وصدره يعلو ويهبط من الانفعال:

«وماذا فعلت أنت؟! استمعت لتلك الملعونة وتركتها تأخذك إلى الغول ليفتك بك!»

ـ «شادية لم تقصد أن...»

ـ «لا تُدافع عنها! أنت لا تعرفها كما أعرفها!»

طفرتْ من عينيك الدموع، أفكارٌ كثيرة تتدافع في رأسك، ولا تجد في نفسك القدرة على التعبير عنها.

ظلّ الجدّ يتأمّلك بانفعال، ثم قال وهو يزفر بضيق:

«لم أشأ أن تراني وأنا غاضب بالأمس، فقدت السيطرة على نفسي بسبب ما قادتك تلك الملعونة لفعله. لم أستطع تصوُّرَ أنك قد تعصاني أو تخالف أمري، شعرت أن كلّ ما بنيته ينهار!»

ثم أكمل وهو يطالعك بعينين متألمتين:

«لكنّي أخفتك، وما كان يجب أن أفعل.. ربما أنت تخشاني الآن!»

أدهشتك نبرة الرجاء في صوته، فلم تدرِ ما تقول.

ـ «لا يجب أن تخشاني، بل تُحبّني كما أحببتني دومًا، من قبل حتى أن أكون جدّك ومُؤدِّبك!»

لم تفهم ما يقصد، بينما نهض من مكانه واقترب منك، أحاط كتفك بذراعه وضمّك إليه بحنان.

ـ «أنا أمانك وموضع ثقتك، وأنت كلّ ما أملك، لا أحبّك لأنك حفيدي فقط، بل لأنك أملي ومستقبلي، أنت كلّ شيء في حياتي، أتفهم هذا؟!»

هززت رأسك بآلية، فأكمل بانفعال:

«الغابة تعجّ بالغيلان، أراها كلّ ليلة تحوم حول الكوخ، تراقب نافذتك وتتلمّظ، تريدك لها. لكن لن يمسّك سوء وأنا بجوارك، أُوصيك

وأُعلّمك، وأنت تطيعني وتستمع لما أقول. أنا فقط من يمنعهم عنك؛ أحميك منهم، ومن كلّ شيء!»

يومها أدهشك الانفعال الذي تحدّث به، دائمًا كان يبدو أمامك هادئًا وقورًا، لم يستسلم قطّ لمشاعره كما رأيته في ذلك النهار.

لم يلبث أن هدأ، وأكمل بلهجة أكثر اتزانًا:

«إن أردت الخروج فلن أمنعك، لكن افعل ذلك تحت بصري، استأذنّي، خذني معك. أما تلك الحقيرة الملعونة، فالاستماع إليها سيوردك المهالك، كانت ستأخذك بالأمس لتسلمك للغيلان!»

راعك ما يقول، فاندفعت تقول دون تفكير:

«أبدًا يا جدّي، هي فقط أرادت تحقيق أمنيتي، لمست رغبتي في رؤية خارج الكوخ فحاولت مساعدتي. لم يكفني التطلع من النافذة، لم يعد يشبعني، هواء حجرتي، هواء كلّ حجرات الكوخ؛ لم يعد يكفيني. ملأني الشغف لأخطو بقدمي على أرض الحقل، أقف تحت السماء بلا فاصل بيننا، أرى شكل الكوخ من الخارج!»

كان يتابعك مندهشًا، استمرّ صامتًا فترة، وبدا أنه شرد يفكّر في شيء ما، فأكملت بحرارة:

«حاولت أن أطيعك، استعضت عن معاينة الخارج بقراءة كتاب الموجودات، حفظت أسماء وأشكال كلّ الحيوانات المذكورة فيه، انطبعت صورها في ذهني، لكنّها مجرد صور جامدة، حلمت لليالٍ عديدة أن

أراها تتحرك أمامي وأسمع أصواتها. لا يمكنني سماع الأصوات في كتاب الموجودات!»

تابع كلامك مشفقًا، ثم سأل برقة:

«ولماذا لم تقل لي هذا من قبل؟»

رددت عليه بانفعال:

«قلتُ يا جدّي، فاتهمتَني بالجنون. ألا تذكر الأسبوع الماضي، أثناء درس ما قبل النوم؟ تهكّمْتَ عليّ، وسألتني عن الفرق بين أن أرى السماء خارج الكوخ وأن أراها من حجرتي. لم تستمع لي ليلتها. شادية من استمعتْ لي، أخذتْني من يدي لتُحقّق حلمي.. قبل أن.. قبل أن...»

اختلج صوتك ولم تستطع أن تُكمل، فغمغم الجدّ بأسف:

«لم تشرح ليلتها ما تودّه بتلك الحرارة، ظننتُها رغبة عابرة ستنتهي بالرفض!»

ثم قال مبتسمًا بلطف:

«عدني ألا تعصيني مرة أخرى، أبدًا أبدًا لا تعصيني! وسأجد حلاً لمسألة الخروج، لن أُحمّلك فوق ما تطيق».

فاجأك ما أبداه من تفهّم، في بداية الجلسة توقّعتَ أن يُنزل بك عقابًا أشدّ مما أنزله بشادية، وبدلاً من ذلك إذا به يكافئك!

حذّرك منهيًا الجلسة:

«ابتعد عن شادية، هذه الفتاة جمعت كلّ مساوئ جنس النساء، عاصية ولا تستمع. إن أردت شيئًا فتعالَ إليّ أنا، نجاتك معي، وهلاكك معها!»

وقبل أن تتحرّك من مكانك، استوقفك:

«لا تنسَ أن تُسجّل كلّ الوصايا التي تعلّمتها مني اليوم».

وقبل أن تغادر ناداك لمرة أخيرة:

«امسح دموعك قبل أن تخرج إلى جدّتك وشادية، لا تكن طفلاً، تذكّر أن عمرك خمسة وثلاثون عامًا!»

(٤)

وضعت الدفتر الأبيض في مكانه تحت الوسادة، بعد أن دوّنت فيه ما دار بينك وبين الجدّ. عرضت عليه قبلها ما كتبت، فأبدى بعض الملاحظات، وطلب أن تعيد صياغة بعض المقاطع، وذكّرك بإضافة جمل فاتتك إضافتها، رغم أنك لا تذكر أنه قالها.

فتحت باب الحجرة بحذر، ورمقت حجرة الجدّ على يسار حجرتك، لم تلمح ضوءًا منبعثًا من أسفل الباب، فاطمأنت نفسك إلى أنه أطفأ شمعته وأوى لفراشه. أغلقت الباب محاذرًا إصدار صوت، وتوجّهت لركن الحجرة، قرب الجدار الأيسر، الذي يفصل حجرتك عن حجرة شادية. خلخلت القطعة الخشبية التي تعرفها جيّدًا، واستخرجت الدفتر الأحمر، وأخذت تُدوّن فيه:

«اليوم الثالث والتسعون بعد استيقاظي، اليوم الأول بعد خروجي من الكوخ:

اليوم أبدى جدّي ومُؤدِّبي عطفًا لم أتوقّعه، منحني إذنًا بالخروج من الكوخ تحت رعايته. شادية مخطئة بخصوصه، فهو طيّب ويحبّني. ليتني أستطيع الكلام معها الآن لأُبشّرها بما حدث. ستُفاجأ في الغد عندما تراني أخرج مع جدّي إلى الحقل، لن يسمح لي بالخروج إلا نهارًا، لأن الغيلان تنشط ليلاً. شادية تقول إن الغيلان غير موجودة، وتُشكّك في كلّ ما يقوله جدّي. اعتادت التسلّل إلى حجرتي عندما ينام، كلّ يوم تُمسك دفتري الأبيض وتقرأ ما دوّنتُه، وتظلّ تضحك. ضحكها يضايقني، فأطلب منها أن تكفّ، فلا تفعل، وتتهمني بالحماقة. قرأتْ قصة الرجل الطائع الذي لم يشرب من البئر ولم يصبه الجنون، سخرتْ من القصة وسألتني متهكّمة:

«كيف عاش سعيدًا وقومه كلّهم صاروا مجانين؟ ألم يخطر له أنه قد يكون هو المجنون؟»

وقبل أن أُفكّر في إجابة، تعود فترميني بسؤال جديد:

«ثم ألم يدّعِ جدّك أن الغيلان تهمس بصوتها الْمُغوي قرب الفجر، ويسمعها كلّ من لا ينام مبكّرًا، فتسحره؟ كيف عرف الرجل أن الصوت الذي حدّثه هو صوت مواليد النور لا صوت الغيلان؟»

أفتح فمي محاولاً الردّ، فتقاطعني:

«وكيف عاش سعيدًا وهو لا يجد من يُحدّثه سوى نفسه؟ لابدّ أن يجنّ، كما سنجنّ نحن أيضًا، ونحن محبوسون في هذا الكوخ بأمر جدّك!»

لم أكن أملك ردودًا على ما تقول، وكنتُ أتمنى أن أجد.

لم أدرِ من أُصدّق، جدّي أم شادية، توسّلتُ إليها أن تصمت وتكفّ عن بلبلتي، فأبت. اتّهمتني بالجبن، وقالت إنني سأشكرها في المستقبل.

سألتُ جدّي واحدًا من أسئلتها كأنّه سؤالي، علّه يجيبه فأرتاح. طالعني بشكّ، فعرفتُ أنه قرأ ملامحي. لعن شادية، ومنعني من الكلام معها أسبوعًا، وطلب مني ألا أشغل ذهني بتلك الأسئلة، قال إن الأمور أبسط من هذا، وأمثال شادية، أولئك الذين يُعقّدون الدنيا بشكوكهم، هم الذين أدّوا لفناء البشر.

شادية تتلقى عقاب جدّي في صبر، ولا تكفّ عن إغضابه. مهما عنّفها، مهما حبسها، مهما منعها من الكلام معي؛ تعود في كلّ مرة إلى ما يُغضبه. يقول إنها ليست حفيدته، ليست ابنة ابنته، بل ابنة الغيلان، تتقرّب إليهم بمخالفته وإغضابه، أما هي فتقول إنه كذّاب، اخترع الغيلان ليبقينا في الكوخ تحت إمرته، حتى موضوع فناء البشر كانت تُشكّك فيه، تؤكد لي أننا لو غادرنا الكوخ وعبرنا الغابة فسنجد مئات، ألوف، ملايين الأكواخ المليئة بالبشر مثلنا. أسألها مرتاعًا: والغيلان؟! فتبتسم ساخرة وتخبرني أن الغابة ليس فيها إلا السناجب اللطيفة، الغيلان في عقلي وعقل جدّي فقط.

لا أدري من أُصدّق.

جدّي وشادية، كلاهما طيّب، يحبّانني ويرغبان في صالحي، وخلافهما يمزّقني. أتمنى لو تتنازل شادية وتحضر معي دروس جدّي قبل النوم، لو تصارحه بتساؤلاتها، ليردّ عليها وتعود السكينة إلى نفسها. أتمنى لو

يتنازل جدّي ويذهب إلى شادية، يستمع لشكوكها ويردّ الطمأنينة إلى قلبها. كلاهما عنيد، كلاهما متشبّث بما يعتقد، ويسيء الظنّ بالآخر، وأنا تائه بينهما.

أدوّن أفكاري هنا، كما نصحتني شادية، لأتذكّرها دومًا».

(٥)

أحيانًا كانت تتملكك الرغبة في البكاء، لا تدري لماذا، لكنّ الدموع لا تطاوعك.

تذهب للجدّة وتضع رأسك في حجرها، فتهدهدك. تخبرك أن كلّ واحدٍ منا له مقدار ثابت من الدموع، أصحاب النصيب الأكبر يمكنهم البكاء بسهولة لأن دموعهم غزيرة. تقول إنك محظوظ لأن مقدارك ضئيل، هذا يعني أن أحزانك قليلة. ترمقها بجمود ولا تُعلّق.

بعد انتهاء درس المساء تتّجه إلى حجرتك لتستعدّ للنوم. تحمل نملتك وتتأمّلها، تتحرك بسرعة وعصبية فوق كفّيك، تذكّرك بشادية، متعجّلة، لو صبرت قليلاً لعرفت أنك ستعيدها إلى الأرض لترجع لرفيقاتها. تُلقي نظرة على كرسيك ومنضدتك، لا تكلّمهما بصوت مرتفع، لكنّك تعرف أنهما يفهمان تحيّة المساء التي تُوجّهها إليهما بقلبك. علاقة خاصة

تربطك بأشيائك، بأثاث البيت، يُحدّثك وتُحدّثه، تثق أنه حيّ، يراك ويودّ لو يُخاطبك، لولا أنه لا يستطيع الكلام. في الليالي التي لا تأتيك شادية لتتحدّث معك، تقضي جزءًا من الليل تتحاور مع المنضدة والكرسي، وأحيانًا السرير، إلا أنك لا تُرهق السرير كثيرًا بالحديث، تعلم أنه يسهر طوال الليل ليحميك، يمنعك من السقوط في تقلّبك، يصدّ الكوابيس التي تحاول الولوج لعالمك، تنام قرير العين بفضله، لولاه لامتلأ نومك بصور الغيلان المفزعة. تُحاول الحديث مع أدوات مطبخ الجدّة، لكنّها لا تردّ عليك، فتعرف أنها تخشاك لأنك لست صديقها، لا توجد علاقة خاصة بينكما. ما يدريها أنك لن تُفشي سرّها؟ وتستحي أن تسأل الجدّة عن أدواتها، كي لا تلفت انتباهها إلى سرّ الأدوات والأثاث، إن كانت لا تعرف، فتكرهك أدوات المطبخ أكثر.

كثيرًا ما يفزعك عواء الذئاب القادم من وراء الأشجار. الجدّ كان يطمئنك، الذئاب تخشى البشر، لن تقترب منا، الذئاب ليست كالغيلان. في إحدى الليالي زاد العواء عن المعتاد، وامتدّ، وتكاثر. حتى دجاجات الجدّة أصابها الذعر، فانطلقت تُقأقئ من حظيرتها الصغيرة في ظهر الكوخ.

لم تجرؤ على النظر من النافذة، لأنك عرفت ما ستراه. نهضت من الفراش عندما سمعت جلبة خارج الحجرة. خرجت متردّدًا فألفيت الجدّ والجدّة وشادية متسمّرين في أماكنهم، يحدّقون في باب الكوخ بتحفّز. سمعت صوت لهاث وراء الباب، لم يلبث أن تحوّل إلى خمش، هناك من يحاول عبور الباب إليكم. أصابك الفزع، واختنقت الكلمات في حلقك. الجدّ أسرع إلى حجرته وعاد ومعه بندقيته، تأكّد أنها محشوة

ثم أسرع إلى حجرة شادية، الأقرب إلى باب الكوخ، وعالج رتاج نافذتها وأزاح زجاجها. هتفت به فزعًا أن لا، لا تفتح النافذة فتصيرون كأنّكم في العراء، أيّ شيء يمكنه القفز إليكم، لكنّه أخرج بندقيته من النافذة وأطلق طلقتين. كنت تقف وراءه مرتاعًا، صوت البندقية جعلك تتراجع وتُغطّي رأسك بيديك، والدويّ يتردّد في أذنيك. عندما رفعت رأسك لمحت من النافذة عددًا من الذئاب تفرّ مبتعدة، فوقفت ترمقها بدهشة، بينما قوائم آخرها تغيب بين الأشجار.

هتف الجدّ منتصرًا:

«أصبتُ قائدهم!»

سألته شادية بدهشة:

«كيف عرفت أنه قائدهم؟»

رمقها بطرف عينه، وردّ باستخفاف:

«ما كانوا ليفرّوا لو أصبتُ أيّ واحدٍ منهم، قائد القطيع كان سيهاجمني لينتقم!»

وفي الصباح التالي ناداكم الجدّ من الحقل، وهو يرفع يده المصبوغة باللون الأحمر، ويقول بلهجة الانتصار:

«أترون؟ هذه دماؤه ممتدّة من الحقل وحتى الغابة. أصبته، ولن يعيش طويلاً!»

تلك الليلة كانت فارقة، ظللت لليالٍ عديدة تخشى الاقتراب من النافذة، ما أدراك أن الذئاب لا يمكنها اقتحامها؟ الجدّة اكتشفت في

الصباح التالي أن الذئاب حاولت اقتحام حظيرة الدجاج، لولا أن بابها الوحيد ينفتح على المطبخ داخل الكوخ.

سألتَ الجدّ أيهما أشدّ خطرًا؛ الذئاب أم الغيلان، ففكّر قليلاً ثم أجاب:

«الذئاب أشرف من الغيلان، لا تأتي إلا إذا جاعت، وقبل أن تأتي تُنذرك بعوائها، وإذا أدركتْ قوّتك لا تُهاجمك ثانية، أما الغيلان.. الغيلان لن يهدأ بالها قبل أن تقضي عليك!»

فاطمأنت نفسك من جهة الذئاب، وعدت تترقّب الغيلان.

(٦)

أحيانًا لا تأتي شادية لحجرتك وحدها، تشدّ الجدّة من يدها وتُجلسها بينكما على السرير، وتنتظرانها كلاكما أن تتكلّم. تتغيّر النظرة الحادّة في وجه شادية وتتلوّن عيناها بالشغف. تختلس النظر إليها، لأنك تُحبّ نظرتها تلك. الجدّة تحكي لكما حكاياتها الممتعة، تحدّثكما عن بلاد بعيدة أهلها طيّبون، يعيشون في أمان، إلى أن تأتيهم الغيلان العمالقة فتغزوهم، وتحرق بيوتهم. لكنّ شابًا فقيرًا وحيدًا، لم يكن أحدٌ يلقي له بالاً، يتصدّى لهم ويهزمهم. ترى نفسك هذا الفتى، تتقافز فوق أكواخ الفلاحين وتعتلي أكتاف الغيلان، تغرز سيفك في أعناقها أو أعينها، فتسقط مدحورة. تشعر بنفسك خفيفًا، لا شيء يمكنه الوقوف أمامك، ترى شادية ترمقك بفخر وإعجاب، تنقذها قبل أن يطبق الغول أصابعه الكبيرة على خصرها، تخطفها من أمامه وتحملها وتقفز بعيدًا، والغول

ينفخ من منخريه مغتاظًا. تنتبه والجدّة تُنهي حكايتها، فتطلب منها بحماس أن تقصّ عليكما واحدة أخرى، فتقول بحزم، لابدّ أنها بذلت جهدًا في اصطناعه، إنها لم تُنهِ أعمال المطبخ ولم تطعم الدجاج بعد، غدًا ستحكي لكما قصة جديدة.

بعد أن تغادركما، تقترب شادية وتتلفّت حولها حتى تتأكّد أن الجدّ بعيد، وتهمس لك:

«ألن تأتي معي إلى الخارج؟ لن نظلّ طوال عمرنا نسمع حكايات الجدّة، في الخارج حكايات طازجة تقع طوال الوقت».

تشعر أنها تسحبك في اتجاه تخشاه، تقول لها محاولاً ألا تستفزّها:

«الخارج خطر، نحن لا نعرف ماذا ينتظرنا، لكن هنا، في كوخنا، نحن آمنون».

تهتف مغتاظة:

«أعرف أنك تودّ الخروج أيضًا، أراك تقف قرب النافذة تتطلع لما وراءها بشغف، لا تنكر!»

تبرّر مدافعًا عن نفسك:

«ليس كلّ ما نرغبه نناله، هناك مخاطر يجب أن نضعها في حسباننا!»

- «وما يدريك بذلك؟ كلّ ما تعرفه تستقيه من جدّك، لن نعرف ما لم نجرّب!»

يتسلّل الخوف إليك، فتقول لها بحدّة:

«نجرّب؟! الذئاب هاجمتنا ونحن آمنون في كوخنا، فماذا ستفعل لو ذهبنا إليها بأرجلنا! وهناك الغيلان.. الغيلان لن تهدأ حتى تقضي علينا، فتخلو لها الأرض!»

ترمقك باستخفاف، فتُكمل أنت بانفعال:

«أنتِ مُغامِرة، لا تحسبين خطواتك، تلقين بنفسك فيما أمامك بلا تفكير، أما أنا فما الذي يضمن لي ما سأجده هناك؟ لماذا أُضحّي بالسقف والجدران والضوء والدفء لألقي بنفسي في شيء لا أعرفه؟!»

فتردّ عليك بغيظ، وهي تشير نحو النافذة:

«خلف تلك الغابة أثق أن هناك بشرًا مثلنا، يسكنون آلاف الأكواخ مثل كوخنا. أودّ أن أقابلهم وأعيش بينهم وأختلط بهم، لن أبقى طوال عمري بين جدران هذا الكوخ، لمجرد أن جدّك يريدنا أن نبقى!»

تخنقك رغبتها في الرحيل، فتهتف منفعلاً:

«وما الذي يمنعك؟ لماذا تريدينني معك؟! اذهبي وقابلي أناسك هؤلاء من دوني!»

فتجيبك بعصبية:

«لستُ شجاعة لدرجة خوض الغابة وحدي، أريدك معي لتشدّ أزري، لو استطعتُ حمل جدّك وجدّتك على مرافقتي لفعلت، لكنّهما سبب حبسنا هنا!»

صوتكما يرتفع، فتظهر الجدّة عند باب الحجرة تنظر إليكما بفضول،

قبل أن تذهب، فتخفض شادية صوتها، رغم ملامحها التي تتميّز غيظًا، وتهمس لك:

«كما تشاء، ابقَ كما أنت! أما أنا، فسأخرج الليلة، بك أو من دونك!»

تخشى أن تغضبها، تخشى أن ترحل وحدها فلا تراها ثانية، فتُحاول أن تقنعها:

«لكن.. الغيلان...»

تهتف بك أن الغيلان في عقلك فقط، وتُلقيك بنظرة استخفاف:

«أنت خائف، وأنا لا أُحبّ الخائفين!»

ولما ترى نظرة الضعف في عينيك تقول مغرية:

«لن نرحل الليلة، سنكتفي فقط بالتجربة، نرى الخارج وندور حول الكوخ لأريك أنه لا خطر هناك، ثم نعود قبل أن ينتبه أحد!»

فتعرف أنك لن تصمد أكثر مما فعلت، وأن هذه الليلة لن تمرّ على خير.

(٧)

في الليلة التي لمحت فيها الغول، أو ما ظننته الغول، لم يتّسع وقتك لتتدبّر كلّ ما حولك. أما الآن، في مجلسك أمام باب الكوخ، وبينما تراقب الجدّ وهو يعمل في الحقل؛ أُتيح لك أن تدقّق في الخارج وتتأمّله على مهل. لفحة الشمس على جلد يدك، نسمات الهواء التي تداعب برقّة وجهك، زقزقة العصافير بين أشجار الغابة المتشابكة، ملمس الأرض تحت قدميك الحافيتين، كلّ هذا كان جديدًا طازجًا أمام عينيك؛ منظر الكوخ من الخارج سمّرك في مكانك، وقفت مذهولاً تتأمّله، بعدما خرجت وراء الجدّ؛ فالتفت إليك مندهشًا. لم تسمع نداءه وهو يسألك عما هنالك، وقفت تُحملق في المكان الذي عشت فيه طوال الأسابيع الماضية، تجوّلت في كلّ أركانه، وتخيّلته كالقصور المسحورة التي تسمع عنها في حكايات الجدّة، والآن وأنت تراه للمرة

الأولى من الخارج، ترى حجرتك، النافذة التي طالما وقفت وراءها ترقب بافتتان خارجها، يبدو متواضعًا، أصغر حجمًا وأقلّ شأنًا، ومع ذلك فيه شيءٌ فاتن، كأنّه عجوز بائس لا يملك إلا قلبه الطيّب، فأحببته. بالفعل مرأى السماء يختلف عن مشاهدتها من وراء زجاج النافذة، هل زوال ذلك الحاجز الرقيق الشفّاف يجعل الأمور مختلفة هكذا؟ الآن بإمكانك أن تشرح للجدّ الفرق، كيف لم يدركه بنفسه؟ ألأنه اعتاد الخروج؛ صارت الأمور لديه متشابهة؟

على بعد خطوات منك، يمضي خطّ النمل الخارج من حجرتك، حتى يغيب بعيدًا في طين الأرض، لا تدري أعرفك أم اختلط عليه الأمر؛ فظنّك تشبه صديقه القابع دومًا في حجرته.

الجدّ يرفع فأسه ويهوي بها على الأرض فيشقّها، يبذر فيها حفنة من البذور، ثم يطمرها وينتقل لما بعدها. كنت تراقبه كلّ يوم من وراء النافذة وهو يعمل، شرح ذات مرة في درس المساء طبيعة ما يقوم به، وسمّى لك أسماء النباتات التي يزرعها، فاستغربت وسألته مندهشًا: أحقًا أن ما تأكلونه من خضراوات إنما يأتي من تلك الحبّات الصغيرة التي يضعها في باطن الأرض؟ أعندما تختبئ تلك الصغيرة تحت التربة تستدعي من داخلها شيئًا مختلفًا أكبر منها؟

قلّبت تربة الأرض بيدك، قبضت قبضة منها ورفعتها أمام عينيك، وتركتها تنساب من بين أصابعك ببطء، وأنت تشعر أنك ضيّعت وقتًا طويلاً، منذ استيقاظك وحتى الآن، في الانشغال بالمبادئ والنظريات التي يُعلّمك الجدّ إياها، في قراءة الكتب التي يطلب منك قراءتها؛ بينما هناك إجابات مختلفة مخفيّة في هذه الحبّات السمراء، في معجزة

احتضانها للبذور لتُخرج منها شيئًا آخر. ربّت على الأرض بحنان، شعرت أنها تُخفي أكثر مما تُظهر، وأحببتها.

لم تكفَّ عن النظر بقلق إلى حزام الأشجار، على بعد خطوات من حقل الجدّ، حيث تبدأ الغابة؛ وفي كلّ مرة تتوقّع أن تجد الغول واقفًا هناك، ولا يطمئنك إلا تأكيد الجدّ أن الغيلان لا تخرج إلا ليلاً، ما دامت الشمس هناك في السماء فنحن بخير.

شادية كانت على حق؛ تشعر الآن بالامتنان لها، الخارج يستحق ما بَذَلْتَه من أجله. انتابتك رغبة لم تتملّكك من قبل، أن تتّخذ خطوة بنفسك بدلاً من أن تخطو دائمًا وراء شادية والجدّ، شعرت أنك لو لم تفعلها الآن فلن تملك الجرأة لتفعلها أبدًا، فنهضت من مجلسك. تخيّلت شادية ترمقك فَرِحة، فتحرّكت تجاه الحقل، محاولاً إخفاء قلقك. التفت الجدّ إليك مندهشًا؛ فسألته بابتسامة متوتّرة:

«هل يمكنني أن أساعدك؟»

هتف بك:

«عد لمكانك! وعدتني ألا تتحرّك، لا تجعلني أندم على إخراجك!»

ـ «أرجوك يا جدّي، لن أطلب شيئًا آخر، فقط دعني أُساعدك!»

أصرّ أن تعود لمجلسك، أو تدخل إلى الكوخ، لكنّك ألححت في الطلب، صارحته أن تراب الأرض كان خير معلّم لك في الدقائق الماضية، رجوته أن يسمح لك بالمشاركة في صناعة تلك المعجزة. بدا القلق في عينيه، وشعرت أنه سيصرّ على الرفض، إلا أنه لم يلبث أن

تراجع فجأة، ومدّ لك يده بحفنة من البذور، وأشار إلى أين تضعها. اقتربت منه وأنت لا تُصدّق أنك نجحت في إقناعه. عرض عليك فأسه فأخبرته أنك تودّ التعامل مع الأرض بيدك، تريد أن تفتحها بأصابعك. قلّدت ما شاهدته يفعله، انحنيت على الأرض، حفرت بيدك حفرة صغيرة، وضعت البذور في قلبها، ثم طمرتها بالتراب بحنو، وأنت تشعر أنك وضعت معها جزءًا منك.

ـ «يكفي هذا، فلتعد إلى الكوخ الآن!»

وقبل أن تردّ قال بحزم:

«لم أحرمك من شيء، تذكّر هذا!»

دلفت إلى الكوخ وأنت تشعر أنك عدت إليه شخصًا آخر. كانت الجدّة تُنظّف المائدة، فبحثتَ بعينيك عن شادية، وخمّنت أنها في المطبخ تراقب الموقد. رفعت صوتك ليصلها، وأنت تُخبر الجدّة بحماس:

«طلبتُ من جدّي أن يتركني أغرس بذرة في الأرض!»

رفعت الجدّةُ إليك عينين مندهشتين:

«وسمح لك؟!»

أجبتها بفخر:

«رفض في البداية، إلا أنني أصررتُ، قلتُ له إني أودّ ذلك، فاستجاب لي!»

سمعت حركة في المطبخ، لكنّ شادية لم تظهر، فشعرت بالإحباط.

لوهلة كدت تضرب بعرض الحائط كلّ دواعي الحذر والتعقّل؛ فتذهب إليها وتخبرها بكلّ ما حدث، تشكرها لأنها أخرجتك من جدران حجرتك الأربعة، علّ ذلك ينسيها ما فعلتَه فترضى عنك؛ غير أن الجدّة أثنتك عن ذلك عندما غمغمتْ بحزن:

«لابدّ أنك أغضبت جدّك!»

التفتّ إليها بدهشة:

«أغضبتُه؟!»

ـ «أجل، ما كان ليسمح لك بالخروج، أو مساعدته في الحقل؛ لولا أنك أشعرته أنك قد تخرج من ورائه إن لم يسمح لك بالخروج أمام عينيه!»

ـ «لكن يا جدّتي، أنا لم...»

قاطعتك بحرارة:

«جدّك يحبّك، يحبّنا جميعًا، ويبغي مصلحتنا. حتى شادية يحبّها ويسعى لخيرها، وإن بدا قاسيًا. أول أمس، عندما ضبطكما خارج الكوخ، وانهال بالضرب على المسكينة؛ كدت أقف بينه وبينها، لكنّي أدركتُ أنه يفعل ذلك لمصلحتها، لأنه يحبّها، لو لم يضربها فستُكرّر فعلتها مرة واثنتين، ولن تنجو في كلّ مرة، سينالها السوء في الخارج، وقد نفقدها. نفقدها أم يؤدّبها جدّها لتعتدل حالها؟»

كنت تعرف أن كلامها صحيح، الجدّ يحبّكما حتى وإن بدا قاسيًا. صمتك شجّعها على الاسترسال متوسّلة:

«لا تفجعه فيك، لا تستغلّ حبّه فتقسُ عليه، أعرف أنه يتألم لأنك لم تعد تثق في كلامه كما كنت في السابق. كلّ يوم كان ينام مبتسمًا بعد انتهاء درسه معك، إلا أنه منذ ليلتين يتقلّب في فراشه كثيرًا، ويظلّ يرمق السقف. كلّما استيقظتُ أجده شاردًا يرمق السقف، أرجوك يا بني، لا...»

ـ «بدلاً من شغل نفسه بنا؛ فلينشغل بحاله!»

فوجئتَ بشادية تقف أمام مدخل المطبخ تحدّج الجدّة بغيظ.

ـ «أخبريه يا جدّة أننا أدرى بأنفسنا، لسنا بحاجة إلى نصائحه وحمايته!»

همست الجدّة متوسّلة، وهي تتطلع لباب الكوخ بقلق:

«أرجوكِ يا ابنتي، اخفضي صوتكِ، سيسمعكِ!»

استمرت شادية في هتافها الساخط:

«وماذا سيفعل؟! سيضربني بقسوة أكثر من المرة السابقة؟! نحن لسنا بحاجة إليه ليحمينا من أيّ شيء، نحن بحاجة لمن يحمينا منه هو!»

ارتاعت الجدّة وشحب وجهها، وأسرعتْ إلى شادية تدفعها أمامها إلى المطبخ، في نفس اللحظة التي سمعت فيها صرير باب الكوخ والجدّ يفتحه، ليبدو على عتبته متسائلاً:

«ماذا هناك؟ من منكم يتعارك مع من؟!»

فأسرعت تتظاهر بتنظيف المائدة مكان الجدّة، وأنت ترمق مدخل المطبخ حيث اختفت المرأتان، ممتنًا أن الجدّ لم يسمع ما قالته شادية. لكنّك عندما استرقت النظر إليه، وجدته يتطلع إلى مدخل المطبخ مقطّب الجبين؛ فأدركت أنه في الغالب سمع كلّ شيء.

(٨)

دوّنت كلّ ما حدث في الدفتر الأحمر، قبل أن تُعيده إلى مخبئه بحرص. لم تخطّ حرفًا في الدفتر الأبيض، الجدّ ألغى درس الليلة، قال إنه يكفي ما تعلّمته اليوم في الحقل. لم تُتح لك الفرصة لتلتقي بشادية، لا تدري أهي ناقمة عليك، أم على الجدّ فقط. فكّرت لوهلة أن تبعث لها برسالة مع الجدّة، لكنّك لا تثق أنها ستوصلها، ولا تودّ المخاطرة بمكاسبك إن أغضبت الجدّ.

فكّرت في تلك اللحظة أن تطرق الجدار الفاصل بين حجرتك وحجرتها، تستدعيها لتأتي إليك، رتّبت في ذهنك كلّ الأفكار التي ستقولها، تخيّلت حتى النبرة التي ستنطقها بها، كنت ستخبرها أنك عرفت أنها على حق، ما رأيته لم يكن سوى قرد، الخارج ليس مخيفًا كما تصورته، بالعكس فاتنٌ عذب. تقول لها إنك وطّنت العزم على

مصارحة الجدّ بذلك، ستقول له إنك لم تعد واثقًا من وجود الغيلان، إن كانت حقًا كما يقول فأين هي، تسأله: هل رآها أحد من قبل؟ هل رآها هو؟ لماذا لا تظهر إن كانت تسعى للنيل منا؟ تناقشه في خلافه المستمر مع شادية، تطلب منه أن يصالحها، تصارحه بأنه قد يكون مخطئًا. والجدّ طيّب وشجاع، إن بدا له أنه أساء الفهم فسيعترف بذلك، سيعتذر لها وتعيشون جميعًا في سعادة؛ تعمل مع الجدّ طوال النهار في الحقل، بينما هي والجدّة تُعدّان لكما الطعام، وتتناولونه جميعًا على مائدة واحدة، وربما يوافق الجدّ أن تنقلوا المائدة خارج الكوخ، لتأكلوا وسط زقزقة العصافير العائدة لأعشاشها. شعرت بالسعادة والراحة، سيكون كلّ شيء بخير.

مع ذلك تردّدت قليلاً، شعرت بالتوتر من مواجهة شادية، حتى وأنت تعرف أن ما تقوله سيسعدها، أخذت تذرع الحجرة مفكّرًا، لا تريد أن تُعرّضها للخطر، مجيئها الآن إليك قد يُعرّضها لنقمة الجدّ، إن اكتشف أمرها.

ولو أنك أويت إلى فراشك مبكّرًا، بدلاً من التفكير والسهر، لمضت الأمور فعلاً بخير في الأيام التالية؛ كنتَ ستجد طريقة للتواصل مع شادية، وستعرف أنها ليست غاضبة منك، بل فخورة بما فعلت، وكان الجدّ سيرضخ مع الوقت للمزيد من طلباتكما، ويجد نفسه عاجزًا أمام شعوركما المستمر بالقوة والثقة، لكنّك لم تفعل.

بدلاً من ذلك سمعت صوت النقر على زجاج النافذة، فالتفتّ بدهشة لترى ما هناك.

وعلى ضوء القمر الخافت في الخارج رأيته، كان يقف أمام النافذة، لا يفصل بينكما إلا زجاجها، يحدّق فيك بثبات بعينيه الحمراوين. لا، لم يكن قردًا، ملامحه أقرب لملامح إنسان مسخوط، مثل أولئك الذين رأيت صورهم في كتب الجدّ، ملامح مشوّهة غليظة، أشبه بخنزير غاضب متجعّد الجلد، رأسه الرمادي الضخم متوجّه نحوك، كأنّه ينتظر ردّة فعلك. فيما بعد ستندهش أن كلّ تلك الأفكار انسابت في رأسك خلال الثانية الواحدة الفاصلة بين رؤيتك له وانهيارك على الأرض. اجتاحك الهلع، شعرت به يندفع على طول ظهرك إلى ما بين ساقيك، قرصة برد لسعتك، جمّدتك في مكانك لوهلة، قبل أن يزول ثبات قدميك، فلا تعودان قادرتين على حملك. هويت وأنت ترمقه جاحظ العينين، وفمك المفتوح على اتساعه لا يقوى على فعل شيء. مدّ يدًا مخلبية مشعرة وألصقها بزجاج النافذة كأنّه سيخترقها، فاستطعت أخيرًا تحرير صوتك، وأطلقت صراخك الهستيري المتواصل الذي أيقظ من في البيت وجعلهم يهرولون إليك فزعين.

شادية كانت أول الواصلين، اقتحمتْ حجرتك وهي تحمل شمعتها في يدها، تتبعها الجدّة التي كانت لا تقلّ عنك فزعًا. انحنتا عليك تسألانك عما هناك، فأشرت بيد مرتجفة رفعتها بصعوبة إلى النافذة. التفتتا، فلم تجدا شيئًا، لم يكن هناك. أردت أن تتكلّم، تخبرهما بما حدث، فوجدت أسنانك تصطكّ بعنف كلّما حاولت تحريك شفتيك. أخذتك الجدّة في حضنها وهي تغمغم مطمئنة:

«لابدّ أنه كابوس، لا تخشَ شيئًا يا ولدي!»

شادية رمقتك غير فاهمة وتساءلت:

«وما الذي جعله يحلم بالكوابيس هنا بعيدًا عن سريره؟!»

وعندما هرع الجدّ إليكم متسائلاً عما هناك؛ استطعت أخيرًا أن تنطق:

«غول.. هناك.. النافذة!»

تطلع الجدّ إلى النافذة بقلق، وبلا كلمة أسرع يغادر الحجرة. بعد دقيقة كان يقف في الخارج أمام النافذة شاهرًا بندقيته، وهو يتلفّت حوله في حذر. أشار إليك مطمْئنًا ثم عاد إليكم.

ـ «ألم أخبرك أن الغيلان تتربّص بك؟!»

هتف بها وهو يزفر بغيظ.

ـ «أنا الملوم لأني طاوعتُك وتركتُك تخرج. كان لابدّ أن أقسو عليك وأرفض!»

لم تجد ما تقوله فخفضت عينيك. أسرعتْ شادية تهتف:

«ولماذا يظهر الغول الليلة بالذات؟! لماذا لم يقترب من كوخنا من قبل؟!»

التفت الجدّ إليها وردّ بازدراء:

«لأنكِ ملأتِ رأسه بأفكاركِ، جعلتِه يسعى للخروج. حافظتُ عليه طوال الشهور الثلاثة الماضية هنا في الكوخ، حيث الأمان، لكن بسببكِ خرج. لابدّ أن الغيلان لمحته وعرفت بوجوده، وستسعى منذ الآن للوصول إليه!»

ثم التفت إليك وهتف بصرامة:

«لم تُصدّقني عندما أخبرتك مرارًا وتكرارًا أن الخارج خطر، أنا جدّك ومُؤدِّبك وأدرى الناس بمصلحتك. اخترت أن تُصدّق تلك الملعونة، فجاريتُك ووافقتُ على خروجك تحت بصري. كنتُ أودّ جذبك نحوي، أعيد ثقتك فيّ، أتركك تكتشف بنفسك زيف ما تدّعيه تلك الملعونة، ابنة الغيلان. لكنّي الآن نادم، الثمن كان اكتشاف الغيلان لوجودك، لن يكفّوا منذ الآن عن محاولات الوصول إليك!»

شعرت بالخجل، ما الذي أوصلت نفسك، وأوصلت الجدّ إليه؟! لماذا ركبك العند واعتقدت أنك تعرف مصلحتك أكثر منه؟!

شادية لم تستسلم، عادت تقول بعناد:

«هراء! لماذا تسعى الغيلان وراءه هو بالذات؟ ألا تراك يوميًا وأنت تعمل في الحقل؟ لماذا لم تهاجمك؟!»

ردّ عليها بنفس العصبية:

«لأني عجوز لا ضرر مني، بينما هو أملنا الأخير!»

هتفتْ بانفعال:

«كفّ عن سخافاتك! نحن لسنا آخر البشر، أنت تحاول أن...»

أوقفتها الصفعة التي هوى بها على وجهها، فسقطت على الأرض، وصرخت الجدّة مذعورة وهي تُسرع إليها.

ـ «إياكِ أن تعارضيني أو تكلّميني هكذا، لا تنسَي نفسكِ! ما أقوله هو

خلاصكم الوحيد. أنتِ لا تفعلين شيئًا غير الوقوف في وجه خلاصنا، تحاولين وأْد أملنا الأخير، أنتِ إما حمقاء وإما تسعَيْن لصالح الغيلان!»

وأشار إليك بغضب:

«وأنت، نَمِ الآن، سأقضي بقية الليل أمام الكوخ أحرسكم، فاطْمئن. وغدًا لنا حديث آخر!»

وعندما غاب ظلّه خارج الحجرة، نهضتْ شادية واجمة، قالت والدموع تترقرق في عينيها:

«أنت لم ترَ غولاً، لا وجود للغيلان، كنت تحلم أو تُهلوس. صدّقني: الغول في رأسك فقط!»

لابدّ أن نظرة عينيك أحبطتها، إذ امتلأ وجهها بالألم، وأسرعتْ تُغادر الحجرة وهي تُخفي وجهها بكفّها.

اقتربت الجدّة وربّتت على ظهرك، ثم سألت باهتمام:

«هل قرأت في دفترك الليلة؟»

هززت رأسك نافيًا، وأنت لا تقوى على النطق، فبان البِشْر في وجهها، وهتفت بحماس:

«لهذا وصل الغول إليك، لو أنك قرأت وصايا جدّك قبل أن تنام لامتلأت بحكمة تحول بينك وبين كلّ الغيلان!»

ولما وجدتك تنظر إليها متردّدًا عادت تهتف بحماس:

«هيّا، هيّا! أخرج دفترك وراجع حِكَم جدّك، ستحفظك من شرور

وحوش الغابة المظلمة، ولا تخشَ شيئًا لأنه يسهر على حراستك!»

وتركتك بعد أن أخرجتَ الدفتر الأبيض من تحت الوسادة، وبدأتَ تقرأ فيه والدموع في عينيك.

(٩)

«اليوم الثالث والعشرون بعد استيقاظي:

جلستُ إلى جدّي ومُؤدِّبي؛ فطلب مني أن أدوّن كلماته لأتذكّرها دومًا: قال لي إن دروسنا ستنتقل إلى حجرته، لن يأتيني بعد الآن في حجرتي، لأني صرتُ قادرًا على النهوض ومغادرة السرير.

سألتُه:

«أحقًا يا جدّي كنتُ نائمًا طوال ثلاثين عامًا؟ كيف ينام المرء ثلاثين عامًا!»

فحكى لي قصة الرجل الطاهر الذي كان يسبح في النهر، وكاد يغرق. النهر أشفق عليه فحمله إلى أرض مواليد النور، وهناك على الشطّ نام ألف عام، وفي كل ليلة كان مواليد النور يأتونه في منامه فيجلسون إليه

ويعلّمونه حكمة لم يتعلمها بشر من قبل، إلى أن قالوا له ذات ليلة إن الوقت قد حان. وفي اليوم التالي استيقظ، وحمله النهر إلى قريته، فنقل لهم تعاليم مواليد النور، وعاشوا جميعًا في سعادة وهناء.

قال لي:

«أنت نمت ثلاثين عامًا فقط، كنتَ في الخامسة ونمتَ فلم تستيقظ. في البداية ظنناك متّ، لكنّك كنت تتنفس، قلتُ لجدّتك: دعيه، سيستيقظ عندما يحين الوقت. كنا نقلّبك مرتين في اليوم، ونضع الطعام في فمك. لم أيأس يومًا، كنتُ أنتظرك، وأُطمْئن جدّتك أنك لن تتركنا طويلاً، ستعود لتعمّر الأرض وتملأها أطفالاً أصحاء. سينزوي الغيلان في الكهوف والجبال والجزر المهجورة، وسنسود الأرض مرة أخرى، لن يقف في طريقنا أحد».

سألتُه:

«لكنّي يا جدّي لا أذكر شيئًا، لا أعرف من أنا، لا أذكرك ولا أذكر جدّتي ولا شادية، ولا حتى والديّ، لا توجد أيّ ذكرى في رأسي، كلّ شيء يبدأ عند استيقاظي، حينما أخبرتني أنك جدّي، وأنك ستُعلّمني كلّ شيء».

أجابني مطمئنًا:

«كنتَ صغيرًا جدًا عندما نمت، طبيعي ألا تذكر شيئًا، ربما تتذكّر بعض الأشياء مع الوقت. أنت تتعلّم بسرعة، تشرّبت مني مبادئ القراءة والكتابة خلال أسابيع قليلة، وربما حان الوقت لتُسجّل ما تسمعه مني كي لا تنساه. أنت تلميذ مجتهد، وأنا مطمئن عليك».

«اليوم الخامس والعشرون بعد استيقاظي:

جلست إلى جدّي ومُؤدِّبي؛ فطلب مني أن أدوّن كلماته لأتذكّرها دومًا: اليوم حضرتْ شادية معي درس جدّي. استغربتُ رغبتها المفاجئة، فمنذ بدء الدروس، بعد الأسبوع الأول من استيقاظي، وهي لا تُبدي اهتمامًا بها. حتى جدّي لم يبدُ لي سعيدًا بوجودها.

ذكر لنا جدّي أن العالم مُكوّن من أربعة عناصر: الماء والهواء والتراب والنار، وأن كلّ شيء، حتى نحن، فينا نسب مختلفة من هذه العناصر. شادية سألته وهي تُخفي ابتسامة ماكرة:

«ولماذا لا نقول إن العالم مُكوّن من الحديد والنحاس والصخر والخشب، أو السُكّر والملح والفلفل والكمّون، أو حتى من الأكواب والأواني والملاعق ومفارش المائدة؟»

حدّجها جدّي بنظرة صارمة:

«نحن لا نقول. علماؤنا الأقدمون، الأكثر منا فهمًا لطبيعة العالم، هم من نقلوا لنا معرفتهم الحقّة، التي من الخطر التشكيك فيها، ومن سوء الأدب تعاطيها باستخفاف!»

قالت له بجدّية:

«أنا لا أمزح يا جدّي، أتكلّم جادّة، أودّ أن أفهم. لماذا يجب أن يتكوّن العالم من أربعة أشياء؟ لماذا لا يتكوّن من خمسة أو ستة؟ أو شيئين أو ثلاثة؟ لماذا لا يتكوّن من شيء واحد فقط، أو لا شيء، لماذا لا يكون العالم مصنوعًا من اللاشيء؟»

ولم تستطع أن تكتم ضحكتها أكثر من هذا، فانفجرتْ مقهقهة، أمام عينيْ جدّي الساخطتين. شعرتُ بالحرج مما تفعل، وأغلق جدّي الكتاب الذي كان مفتوحًا أمامه، وأنهى الدرس. كنتُ حزينًا لأني لم أتعلّم شيئًا الليلة، وقبل مغادرتي حجرة جدّي استوقفني:

«لا تنسَ أن تُدوّن ما حدث الليلة، لتتذكّر من يفسد عليك دروسك».

«اليوم السابع والعشرون بعد استيقاظي:

جلستُ إلى جدّي ومُؤدِّبي؛ فطلب مني أن أدوّن كلماته لأتذكّرها دومًا: سألتُه حائرًا:

«شادية تقول إنني لم أنم ثلاثين عامًا كما أخبرتني. تقول إننا كنا نعيش جميعًا هنا منذ صغرنا، وأنك كنت تمنعنا من الخروج لأننا لو فعلنا سنمرض ونموت. وعندما كبرنا سمحت لنا بالتجوّل حول الكوخ. قالت لي إنني خرجتُ معك منذ بضعة أسابيع، ثم عدتَ تحملني فاقد الوعي، وأخبرتَها أن وحشًا من وحوش الغابة هاجمني. استيقظتُ بعدها بأيام وأنا لا أذكر شيئًا».

استمع جدّي إلى كلامي وهو ينفخ من الغيظ، ثم أمرني ألا أُصدّق كلام شادية، قال إن النساء واسعات الخيال، وإن شادية بالذات ليست على ما يرام، هناك خطبٌ في رأسها يجعلها حادّة عصبية وتتخيّل أمورًا ليست موجودة، تشكّ في كلّ شيء وتُكذّب كلّ شيء، وتسعى دومًا لمعاندته والانتقاص منه. أخبرني أنه يصبر عليها دائمًا، لكنّه يومًا ما سيفقد حكمته أمام حماقاتها. طلب مني أن أُقلّل من كلامي معها كي لا تُبلبلني في هذه الفترة الحرجة، بينما ما زلتُ أتعافى بعد استيقاظي من نومتي الطويلة. بعد انصرافي سمعتُه يناديها، ووصلني من حجرته

صوت عراكهما. أتمنى أن يتفاهما ويتوصّلا لرواية واحدة يخبرانني بها عما جرى لي، لأن الروايات المتعارضة تُربكني وتُثير حيرتي».

(١٠)

شادية انكسرت، وانكسارها آلمك.

اختفت نظرة التحدّي من عينيها وحلّت مكانها نظرة شاردة تنساها على وجهها، وعندما تنتبه تهزّ رأسها وكأنّها تستيقظ، ثم ما تلبث أن تشرد من جديد. لم تعد حتى تعتني بشعرها الجميل كما اعتادت، وصارت تتركه مبعثرًا منذ تستيقظ وحتى تأوي لفراشها.

رجوت الجدّ بلوعة:

«يجب أن نساعدها، لا يمكن أن نتركها هكذا!»

فتظاهر بأنه حزين وليس بيده ما يفعله، إلا أنك لم تفتك نظرة سرور مرّت بعينيه، قبل أن يخفيها بنظراته الجادّة. حاولت التحدّث معها، ولم ينهرك الجدّ، لكنّها ظلّت تستمع إليك بنظرة خاوية، وتهزّ رأسها، ثم تمضي لتساعد الجدّة في المطبخ.

شادية كانت معك منذ اللحظة الأولى، عندما استيقظتَ وجدتها جالسة قرب فراشك تتأمّلك بقلق، كنت تشعر بصداع يمزّق رأسك، لا تدري من أنت وماذا تفعل هنا، ذهنك صفحة خاوية. مرآها جعلك تنسى الألم لوهلة، غبت في سواد عينيها. الدموع التي تألقت في مقلتيها، زفرة الراحة التي أطلقتها؛ أشعرتك بالأمان، صحيح أنك في وسط المجهول، لكن لن يصيبك سوء ما دمت بجوارها. أسرعتْ تنادي الجدّ، فجاءك مهرولاً وأجاب بثقة عن كلّ أسئلتك. لم ترتح له في البداية كما ارتحت لشادية.

والآن يعزّ عليك أن تراها منبوذة منكسرة. صحيح أنها مخطئة، وكادت توردك المهالك، لكنّها في النهاية شادية.

دروس الجدّ كانت مفيدة وضرورية، غير أن جلساتك مع شادية كانت المتعة الخالصة، كنت تنتظر أن ينتهي وقت الدرس بسرعة لتمضي إليها، تشعر بالخجل من نفسك لأنك تتململ أحيانًا إذا طال الدرس عن المعتاد، وتخشى أن يشعر الجدّ بك. لم يكن يمانع في البداية جلوسكما معًا، لكنّك كنت تشعر دومًا أنه لا يرحّب بذلك، ويرسل الجدّة كلّ بضع دقائق لترى ماذا تصنعان.

شادية كانت تضحك بمرح، وتشرح لك:

«جدّك يخشى أن نتجامع من دون علمه!»

فتسألها بحيرة:

«لكنّه يعلم أننا مجتمعان هنا!»

فتحاول أن تُوضّح أكثر:

«لا أقصد جلوسنا معًا، بل أن نعبث من ورائه!»

لا تفهم، فتستطرد:

«يريد أن يتمّ كلّ شيء بمباركته وتحت بصره، وأنا أرفض لأنك غير مستعد، ما زلتَ بعقلية طفل. عندما تنضج لن أتركك!»

شادية كانت تتصرّف أحيانًا بطريقة غريبة لا تفهمها، طريقة نظرها إليك، ردود أفعالها، نبرة صوتها؛ تختلف فلا تبدو منطقية، إلا أنها تُؤثّر فيك، يتحرك جسدك رغمًا عنك، فتفقد سيطرتك عليه. كانت تهمس وهي تعضّ على شفتها بلا مبرر، وفي عينيها نظرة ساهمة:

«ألا تفهم! نحن مقدّران لبعضنا!»

فتهزّ رأسك مؤيّدًا، وفي ذهنك صورة ضبابية لما تقصده. بصرف النظر عن أيّ شيء، يُسعدك أن تجتمع مع شادية، وجودها بجوارك يملأ خلاياك بطاقة الحياة. أحيانًا عندما تكون معها، أو حتى يخطر طيفها على ذهنك، تجتاح جسدك حرارة تستغربها وتُقلقك، كأنّك أصابك المرض، تشعر بنفسك تغلظ وتستطيل، ويملأك جوع لا تدري كيف تُشبعه، تنتابك رغبة عارمة تجاهها، ويخبرك جسدك أن علاجك عندها، تظلّ تتقلّب في فراشك، ولا تقوى على الوقوف إلا عندما تستيقظ في الصباح شاعرًا براحة الامتلاء والبلل. مع ذلك تظلّ بعيدًا عن الشبع، تتذكّر الجدّة عندما تتأخّر في إعداد الغداء، فتضع لك بعض حساء الأمس لتتصبّر، تمتلئ معدتك به، ولا تشبع. تنهض من فراشك يملأك الخزي والحرج، وتحاول إخفاء نفسك كي لا يراك أحد.

كنت مبهورًا بها، شخصيتها، حديثها، طريقة أخذها للأمور. كانت مُرشِدتك، تمامًا كالجدّ، تحصل منها على معرفة مختلفة، تُوقظ بداخلك جزءًا خاملاً كان يرضيك أن يستيقظ. حتى مع الحيرة والبلبلة التي تسببها لك؛ تشعر أن هذا ثمنٌ بخسٌ مقابل ما تزرعه بداخلك، حتى لو اكتشفت لاحقًا أنه زائف، وأن الجدّ كان على حق. بالتأكيد لم تكن سيّئة النيّة كما يتهمها الجدّ، لم تسعَ لإيذائك بقدر ما أخطأت الطريق. لذلك انكسرتْ، كلّ ما راهنتْ عليه، كلّ ما آمنتْ به، كلّ ما قالته عن الغيلان، اتضح أخيرًا، وبالدليل القاطع الذي عاينته بعينيك؛ أنه هباء. الجدّ كان محقًّا في النهاية، وهي لا يمكنها تحمّل الهزيمة.

تهتف بها متألمًا:

«لِمَ كلّ هذا يا شادية؟! تخلّيْ عن كبريائك لحظة! كلّنا نخطئ أحيانًا، كلّنا ننهزم أحيانًا.. لكنّ العمر ما زال مديدًا أمامنا!»

لم يعد الجدّ قلقًا من كلامك معها، وهي لم تعد تُبادلك الحديث كما كانت تفعل منذ أيام. في المطبخ، على مائدة الغداء، في حجرتها؛ تُحاول أن تجذبها لتُكلّمك كما تُكلّمها، فتظلّ تطالعك بنظرتها الساهمة، ويُخيّل إليك أن تعبيرًا لائمًا يعبر عينيها، فتجتاحك غصّة مؤلمة. هل تعاقبك لأنك تخليت عنها ليلة الغول الأولى، أم لأن عينيك كذّبتاها ليلة الغول الثانية؟

تقول للجدّ متوسّلاً:

«افعل شيئًا، استخدم طب الأقدمين، لا تتركها!»

فيرفع كفّيه ويهزّهما بقلة حيلة مصطنعة:

«لن تنال غير ما تستحقّه».

لم تعد الجدّة تتابعكما لترى ما تفعلان، شادية تبقى في حجرتها منزوية فوق سريرها، تقترب منها قطّتها السوداء وتتوسّد حجرها، فتأخذ في تمسيد ظهرها بحركة لاإرادية وهي شاردة. لم تعد تُغنّي، حتى عندما تطلب منها أن تُسمعك صوتها.

الجدّ يترفّع عن مساعدتها، لكنّك لن تيأس، ستبقى إلى جوارها إلى أن تتجاوز محنتها، وتجتمعان معًا كما أخبرتك مرارًا من قبل.

(١١)

وضعتْ الدفتر الأسود بين يديك، وبلهجة حاسمة أمرتك:

«اقرأ!»

قلّبتَ صفحاته لا تدري من أين تبدأ، فقالت تستحثّك:

«اقرأ من أيّ مكان، لا يهم، المهم أن تقرأ!»

كنتما في حجرتها، بعد أن أوى الجدّ والجدّة لمخدعهما.

طوال الأسبوع الذي تلى ظهور الغول؛ كان الجدّ يسهر حتى الفجر مرابضًا أمام نافذتك، وبين يديه بندقيته. تستيقظ وأنت تتقلّب ليلاً، فتراه من النافذة وقد أولاك ظهره، فتطمئن وتعود للنوم.

صبيحة اليوم الثامن قال لك:

«زال الخطر، يئست الغيلان ولن تظهر بعد اليوم. مع ذلك لا يمكنك الخروج كي لا تُحيي الأمل في قلوبها».

قرب الظهيرة مضت الجدّة إلى الحقل لتحمل للجدّ غداءه، وعندها اندفعتْ شادية نحوك.

كانت تجلس منذ مطلع النهار إلى مائدة الطعام، وتبدو في عالم آخر، كعادتها في الأيام الأخيرة. لكن ما إن أغلقت الجدّة باب الكوخ وراءها، حتى تغيّرت نظرة عينيها، كأنّ بؤبؤيها استعادا طبيعتهما، ارتسمت على وجهها نظرة التصميم القديمة، شدّتك من ساعدك تجاه حجرة الجدّ وهي تهمس لك:

«لا تُصدر صوتًا، سأريك شيئًا».

ولما وجدتك جامدًا ترمقها بحيرة، هتفت بك:

«لا وقت لدينا، الجدّة ستعود خلال دقيقة واحدة، دع حماقتك لثوانٍ وأسرع!»

فتحت باب حجرة الجدّ وسحبتك وراءها. كانت تعرف طريقها، أسرعت إلى صندوق ملابس الجدّ في ركن الحجرة وفتحته، قلّبت في الملابس بسرعة، وتناولت زيًّا رفعته أمامك منتصرة:

«انظر! ألم أقل لك؟!»

أجفلتَ وأنت تراها تُمسك بما بدا كأنّه جِلْد غول، وسألتها خائفًا:

«هل.. هل اصطاده جدّي وسلخ جلده؟!»

ضربتك على رأسك مغتاظة، وقالت بعصبية:

«ألم تفهم بعدُ يا أحمق؟! هذا هو الزيّ الذي ارتداه جدّك ليخيفك في تلك الليلة.. انظر، هذا هو الرأس، وتلك الذراعان اللتان تنتهيان بالمخالب!»

لم تستطع التصديق، لابدّ أن في الأمر خطأ. غمغمت محاولاً منع نفسك من البكاء:

«لكن.. لكن.. لكن.. ربما جدّي صنعه ليبدو كالغيلان كي لا تتعرف عليه، أو أنه...»

ـ «سنناقش هذا فيما بعد، فلنسرع الآن بالرحيل».

أسرعت تدسّ الزي وسط بقية الملابس وتُغلق الصندوق، ثم جذبتك من ساعدك تجاه الباب. قبل أن تصلا إليه وصلكما صوت الجدّة من الخارج تسأل عنكما. تسمّرت شادية قرب الباب، بينما مادت بك الأرض. وضعتْ إصبعها على شفتيها محذّرة، وألصقت أذنها بالباب تسترق السمع. بعد ثوانٍ همست لك:

«ذهبت للمطبخ، اتبعني وإيّاك أن تُصدر صوتًا، كن ذكيًا لمرة واحدة!»

فتحت فرجة من الباب، وانتظرت لحظة، ثم أطلّت برأسها وأشارت لك لتتبعها. أغلقت الباب وراءها بحرص، محاذرة أن تُصدر صوتًا، ثم تسللتما على أطراف أصابعكما تجاه حجرتها.

ـ «نجونا هذه المرة! اسمع، اذهب الآن للجدّة في المطبخ واسألها إن

كانت تريد شيئًا. أخبرها أنك كنت معي في حجرتي تحاول محادثتي، وأنك سمعتها تنادي».

كنت مضطربًا، لا تستطيع استيعاب ما جرى. هززت رأسك مرتبكًا، وقبل أن تفتح باب الحجرة استوقفتك:

«إيّاك إيّاك أن يبدو عليك توتر أو ارتباك. جدّتك ليست كجدّك، يمكنك أن تخدعها بسهولة!»

فعلت كما قالت لك، وطمأنتها عندما عدت أن كلّ شيء بخير، الجدّة لم تنتبه لشيء.

أجلستك أمامها، وأخذت تشرح:

«آلمتني نظرتك، لم ترمقني من قبل بشكّ وعدم تصديق كما فعلت تلك الليلة. أدركتُ أن جدّك نسج خيوطه حولك ونجح في تشكيكك في ما أقول، فعزمتُ على ردّ الضربة له. لم أُصدّق لحظة أن هناك غيلانًا، فطنتُ إلى أنه جدّك، إلا أنك لم تكن مستعدًا لسماعي. تظاهرتُ بالانهزام والاستسلام، وتركتُ جدّك يظن أنه ربحك في صفه، وأني ما عدتُ أطمح إلى شيء، صرتُ خارج الصورة، ليرخي قبضته وتتاح لي الفرصة للتسلل إلى حصونه. بعد أيام، لاحظتُ أن الجدّة لم تعد تراقبني كالسابق. كنتُ أحسب الفترة التي تغيبها في المطبخ، أو عندما تذهب بالغداء لجدّك في الخارج، فأتسلّل إلى حجرتهما، وأغادر قبل أن تعود. عزمتُ على العثور على الوسيلة التي أقنعك بها جدّك بوجود الغول. ثوانٍ قليلة كانت متاحة أمامي، فحاولتُ استغلالها جيدًا. كلّ مرة أُفتّش بسرعة جزءًا من الحجرة، وفي المرة التالية أُكمل من حيث انتهيت. وبالأمس

وجدتُ الزيّ، بعد عدّة محاولات من البحث في أرجاء الحجرة، وبين أمتعة جدّك وجدّتك. كان عليّ أن آخذك لتراه بنفسك، فتتأكّد أن جدّك يخدعك، لا شيء يعلو تصديق العين عندما تعاين بنفسها».

بينما تستمع إليها وهي تحكي، كنت تستغرب مشاعرك؛ شيء بداخلك بدا لامباليًا. عندما ذهبتَ للجدّة منذ قليل لتطمئنها، كنت تخشى أن تكتشف من نظرة عينيك أن شيئًا فيك تغيّر؛ لوهلة ظننت أنك ستتحطم تحت وطأة الشعور بالخيانة، ستذوي مع شعورك بالغفلة والخديعة. جدّك، مُؤدِّبك، حبيبك، هو الغول المخيف؛ أيّ ألم وأيّ مرارة! لكن الآن، وأنت تستمع لشادية، بدا أنك استوعبت الأمر بسرعة، أن جزءًا بداخلك كان يتوقّع ذلك، ولا يرى استقامة الأمور في غير هذا الاتجاه. حتى شادية نظرت إليك مستغربة، كأنّها كانت تتوقّع أن تنهار، تنكسر بذات الطريقة التي ادّعتها هي في الأيام الماضية، لا تقوى على مواجهة فكرة أن الجدّ الطيّب عرّضك لكلّ هذا الرعب، تبذل جهدًا لمواساتك ومداواة جراحك، قبل أن تريا ما ستفعلان، لكن ها أنت أمامها ما زلت متماسكًا.

لم تُضيّع وقتًا في دهشتها، وقالت باهتمام:

«هناك شيء آخر وجدتُه أثناء بحثي. دفتر يحتفظ به جدّك في صندوق يضعه أسفل سريره. تخيّل هذا! جدّك يكتب مذكّراته!»

طالعتها بحيرة، فأكملتْ بحماس:

«يجب أن نقرأه معًا، سنعرف فيمَ يفكّر وماذا ينوي لنا. سأتسلّل

الليلة إلى حجرته، بعد أن ينام، وآتيك بالدفتر. تركته في مكانه كي لا يفتقده».

ثم دفعتك نحو الباب وهي تقول بحسم:

«لا يمكنك أن تبقى هنا طويلاً، كي لا يشكّا في أمرنا. الليلة سآتي إليك».

ما كان أطول هذا النهار عليك! أجبرت نفسك أثناء الغداء على ازدراد الطعام، كي لا يشعر الجدّ بتغيّرك، فكان يمرّ في حلقك بصعوبة وينزل في معدتك مرًّا لاذع المذاق. وفي أثناء درس المساء لم تستطع أن ترفع عينيك في عينيه، تجاوبت معه كالميّت، بلا حماس ولا روح، وعندما انتهيت كنت تأمل ألا يكون قد لاحظ تغيّرك، لكنّك ستعرف لاحقًا أنه انتبه.

وعندما حان الوقت؛ وضعت شادية الدفتر الأسود بين يديك، وأمرتك:

«اقرأ!»

وأضافت لما وجدتك متردّدًا:

«اقرأ من أيّ مكان، لا يهم، أيّ شيء نعرفه عن جدّك سيفيدنا».

طوال النهار تنازعتك أفكارٌ شتّى، فكّرت أنها قد تكون اختلقت كلّ هذا، وضعت زيّ الغول بين ملابس الجدّ، سوّدت بنفسها كلّ ما في الدفتر الأسود من كلمات، لتقنعك أن الجدّ ليس هو الجدّ الذي تعرفه. تعرف ما ستقوله إن صارحتها بذلك، ستسبّك وتتّهمك أنك

صرت أسير ضعفك، لا تقوى على مجابهة الحقائق التي لا تُعجبك. إلا أن شكوكك زالت عندما قلّبت في صفحات الدفتر، تأمّلت الكلمات، وشعرت بغصّة. هذا خطّ الجدّ، تذكُره منذ كان يعلّمك الكتابة.

- «اقرأ بصوت مسموع لأسمع ما تقرأ.. لا ترفع صوتك كثيرًا كي لا يسمعنا أحد».

ولما وجدتك ما زلت متردّدًا هتفت بك، متناسية حذرها:

«إلى متى ستظلّ هكذا؟! أُعرّض نفسي للمهالك لأجعلك تفهم وتتغيّر، فتأبى أن تتحرّر مما أنت فيه!»

وجذبت الدفتر من بين يديك، وقلّبت صفحاته بعصبية، ثم أعادته مفتوحًا على الصفحة الأولى، وهي تهتف بانفعال مشيرة إلى بداية السطر الأول:

«من هنا، اقرأ من هنا أيها الطفل الغبي!»

بدأتَ تقرأ كلمات الجدّ بارتباك، ومشاعر شتّى تتجاذبك...

(١٢)

«أكتب كي لا أنسى، أكتب لأتذكّر دومًا أني كنتُ ساعد المُعْتِق وأمين سرّه.

كلّ سواعده الآخرين خانوه، انقلبوا عليه، وبقيتُ أنا على العهد. لو أنه ما زال بيننا لأنكر عليهم، لركض وراءهم بالسوط وأغلظ لهم القول، لجلبني أمام الناس ورفع يدي بيده الكريمة عاليًا وقال لهم بانفعال سيُبكِيهم: هذا هو ساعدي الحق، البقيّة كذبة، البقيّة دسّوا على وصاياي ما ليس فيها. أتخيّله يردّ لي حقي، أرى وجوه السواعد الكذبة شوهاء، جلودهم تذوب خجلاً من مُعْتِقنا، يسرعون فيقبّلون يده، فيبعدها ويحرمهم منها، ووحدي أنا من يدفعها إليه، فأنكبّ عليها أُقبّلها بشفتيّ الظامئتين وأغسلها بدموعي. آه يا سيّدنا، حادوا من بعدك وجنوا على أمين سرّك.

أذكرك يا سيّدنا قبل أن تُعتقنا، كنت أفضلنا، أبرّنا وأطهرنا، بدوت لنا كالطفل في براءتك ونقائك. كنا جميعًا نحبّك ونقدّرك، لم تنازع أحدًا في شيء، كنت نقي السريرة تُفضّل التجاوز عن الإساءة، تقول لنا: «سأنتصر عندما أعفو»، فأحببناك رغم فقرك. أحببنا وجهك المضيء ولسانك الصادق، حتى في كذبك كنت صادقًا. كيف لا نحبّك وأنت من أنقذنا من العبودية، عندما أرسل حاكم القرية المجاورة، ذلك الجبّار الطاغية، يأمرنا أن نُسلِّم قريتنا ليضمها إلى أراضيه. يومها ركبنا الهمّ، وأيقنّا بالهزيمة، لا قبل لنا بجيوش تلك القرية، لديهم ألف مقاتل بينما كلّ ما لدينا خمسون. ابتسمت وطمأنتنا، أمرتنا أن نصطفّ في طريق رسول القرية المجاورة متسلّحين بعتادنا، الخمسون مقاتلاً كلّهم، وكلّما مرّ بعشرين منا؛ يسرعون من وراء الأشجار ليلتحقوا بآخر الصف، فيراهم من جديد. ظلّ الرجل طوال النهار يمرّ بصفّ جندنا الذي لا ينتهي، ثم عاد قبل أن يقابل حاكمنا. قال لحاكمه، كما وصلنا، إنه لا قبل لهم بنا، جيشنا لا نهائي، وصفوف مقاتلينا كانت تزيد أمامه ولا تنقص.

كنت أكثرنا حكمة، وكنا نخشى الكذب أمامك فتكشفنا ببصيرتك. لم نخشَ المساءلة، بل خفنا أن نقلّ في نظرك. أحببنا صورتنا في عينيك، ابتسامتك تُزيل الهموم، كنت مرحًا لا تكفّ عن البشّ في وجوهنا، أحببناك يا سيّدنا من قبل أن تصبح المُعْتِق العظيم.

يوم اختفيت أظلمت الدنيا، قالوا إنك كنت تسبح في النهر فغرقت. ظللنا لأيام نبحث عنك، لم نأمل أن نجدك حيًّا، كنا نبحث فقط عن جسدك لندفنك بشكل لائق حيث ندفن النبلاء من موتانا، هناك قرب

النهر. مضى شهر وشهران وثلاثة، ونسيناك. اعذر ذاكرتنا يا سيّدنا، نحن قوم ننسى بسرعة كما نحبّ بسرعة. لكنّنا فوجئنا بك تعود ذات يوم، كأنّك لم تغادرنا. أحطنا بك نسألك عمّا وقع لك، فصدمتنا عندما أخبرتنا أنك عبرت النهر إلى الضفّة الأخرى، وأقمت في أرض الخلاء.

لم نكن نعبر النهر قطّ، أجدادنا وأجداد أجدادنا حذّرونا من عبوره، قالوا لنا: لا يعبر النهر إلى أرض الخلاء إلا ميّت، هناك يعيش مواليد النور الذين يعتنون بأرواح موتانا. كنا نراها من ضفّتنا، نرمقها بينما نسبح في النهر، ونتخيّل أرواح الأجداد التي تهيم فيها. بعض شبابنا تحدّوا العُرف وعبروا إليها، فلم يعودوا أبدًا.

أخبرتنا أن النهر جرفك هناك، كدت تغرق لكنّ مواليد النور، سكّان أرض الخلاء، أنقذوك وأبقوك بينهم. قلت لنا إنك تعلمت على أيديهم حكمة ليست كحكمتنا، ألقموك علومًا ليست كعلومنا، بقيت بينهم الشهر تلو الشهر لا تطيق فراقهم، تتزوّد بكلماتهم. ثم اشتقت لنا، ووددت أن نشاركك الخير، فاستأذنتهم لتعود إلينا، فأذنوا لك وقالوا: اذهب، عد إلى أهلك وأرشدهم كما أرشدناك.

جنّ جنون الناس، اتّهموك بالكذب والاعوجاج، تطاولوا عليك وصرخوا بك: «أنت حاقدٌ ناقمٌ على الأجداد!» فلو عاد أحدٌ من أرض الخلاء لعاد أجدادنا، وهم خيرٌ منا ومنك. محبّوك دافعوا عنك على استحياء، قالوا إنك قد تكون واهمًا، حلمت بكلّ هذا وظننته حقيقة.

ما زلت أذكرك يا سيّدنا، في تلك الليلة البعيدة، وأنت واقف على شطّ النهر دامع العينين بعد أن انفضّ الناس من حولك ساخطين،

لم يبقَ معك سواي، وإذا بك تُسرع إلى ضفة النهر وتنحني على الأرض فتلتقط سلحفاة مائية صغيرة، وأنت تهتف بفرحة استغربتُها:

«ها قد أتيتِ، تبعتيني كلّ هذه المسافة!»

لم أُصدّق أنك تتحدّث إلى ذلك المخلوق كأنّه يفهمك، وقبل أن أسألك وجدتك تلتفت إليّ وتهتف بسعادة:

«لن يكون هناك حلزون! لم تذكر السلحفاة، التغيير ممكن!»

لم أفهم حرفًا مما تقول، لكنّك اندفعت بعدها بثقة وحماس تُحدّث أهل قريتنا عن الوصايا. وصايا النور يا سيّدنا، من كان يصدّق أنك ستُغيّر قريتنا بتلك التعاليم التي ظللتُ أحفظها دومًا في قلبي؟ طلبت منا في البداية أن نترك الأشجار تنمو، ونهيتنا عن قطعها وتجريح لحائها، ففي نمائها بركتنا. أمرتنا أيضًا أن نعتني بالطيور والحيوانات الصغيرة التي لا تستطيع حماية نفسها، نسقيها ونبذر لها الحبوب ونلقي لها فتات الخبز، ونمنحها الأمان لتتحرك حولنا، قلت لنا إننا لو حفظناها فسنحفظ أنفسنا، فكيف تطاوعنا قلوبنا لنؤذي بعضنا إذا كنا نعطف على العصافير والقطط والكلاب؟ قلت لنا إن قريتنا بها خمسمئة غني وعشرة آلاف فقير، كلّ غني عليه أن يتكفّل بعشرين فقيرًا، فلا يعود بيننا فقراء. قلت لنا إننا جميعًا نموت في النهاية، لا فرق بين نبيل وحقير، لذلك فلنتوقّف عن دفن صغارنا قرب الغابة، وليُدفن الجميع في مدافن كبرائنا بجوار النهر. قلت لنا إن حاكم قريتنا ورث الحكم عن أبيه، الذي ورثه عن جدّه، وهذا لا يستقيم؛ فليختر الناس حاكمهم من بينهم.

اجتمع حولك المحبّون والفقراء وصغار القوم، وبعض أبناء الكبراء، واستمعوا لك بشغف، بينما ضجّ بك الأغنياء وعلية القوم، وأغروا بك الأطفال والسفهاء فقذفوك بالحجارة في غدوّك ورواحك، فصبرت. قالوا للحاكم إنك تُفسد الناس وتحضّهم على خلعه، أخبروه أنك الرجل الذي خدع رسول القرية المجاورة؛ فاهتاج وهتف بهم: «هذا رجلٌ داهية، ما كان يجب أن تُخلّوا بينه وبين الناس». وبعث في طلبك.

خفنا عليك، كنتُ ألازمك كظلّك رغم صغر سني، رجوتك ألا تذهب، توسّلتُ إليك أن تتحصّن بنا، نحن خلصاؤك ومُحبّوك، فندافع عنك حتى الموت، بكيتُ وبكى من في مجلسنا من فقراء ومساكين، وبكى معنا المُخلِصون من أبناء الأغنياء الذين صدّقوك، تعلّقنا بأذيال ثوبك كي لا تذهب، فطمأنتنا، قلت لنا بابتسامتك الحانية كلمة واحدة فقط، وأنت تمسك بين يديك بسلحفاتك الصغيرة التي لم تكن تفارقك: «أبشروا».

أدخلوك على الحاكم وتركوك معه، لا ثالث لكما سوى السلحفاة. ومضى يوم ويومان وثلاثة، كلّما همّ أحدٌ بالدخول عليكما نهره الحاكم. وفي اليوم الرابع خرج معك ممسكًا بيدك، والدموع في عينيه. لا أحد يعرف ما دار بينكما، الحاكم لم يخبر أحدًا، وكلّما سألناك كنت تبتسم وتصمت. لم نعرف إلا أن الحاكم صار شخصًا آخر بعد جلوسك إليه. قال لنا بتأثّر، وهو متشبّث بيدك، إن لك أن تفعل ما تشاء، تُحدّث من تريد وتقول ما ترغب، من ينهرك أو يحرّض عليك الجهلاء سيُجلد مئة جلدة بسعف النخيل.

زال الخوف، وأُسقط في أيدي الأغنياء والكبراء، وانضمّ الناس إلى

مجلسنا بالمئات، صار من الصعب أن يراك الواقف في آخر المجلس من كثرة المحيطين، الشباب والفقراء والمنبوذين، ثم انضمّ إلينا الكبراء واحدًا بعد الآخر. بعضهم حاول في البداية استمالتك بالمال والمنصب، فكنت تأخذ المال وتوزّعه على الفقراء، وتظلّ كما أنت، تنام تحت الشمس، وتأكل فقط ما يسدّ رمقك. بعضهم حاول التخلّص منك، لكنّنا كنا نحميك بصدورنا، نحيط بك في كلّ وقت، نذبّ الذباب عن وجهك، ونضع وجوهنا على الأرض لنُجنّبك عثرات الطريق.

وعندما مات الحاكم الطيّب؛ اخترناك جميعًا لتكون حاكمنا الجديد، فرفضت وقلت لنا: «ما لهذا عدتُ إليكم». زاد إكبارنا لك، واخترنا حاكمنا الجديد من بيننا. أوصيته يا سيّدنا أن يُحبّنا ويرفق بنا، وما كان بإمكانه ألا يفعل، فقد صرنا سادة أنفسنا بك ومعك.

كنا نراك تلعب مع صغارنا كأنّك واحد منهم، تُحدّثهم وتضحك معهم وتركض بينهم، فنتواضع لبعضنا لنكون مثلك. نتأملك وأنت تطعم سلحفاتك بيدك، وتراقبها بشغف وهي تتحرك حولك ببطء؛ فنحنو على حيواناتنا ونعاملها برفق. رفضت أن نناديك بغير اسمك، فأسبغنا عليك بيننا وبين أنفسنا لقب المُعْتِق، لأنك أعتقتنا من أسر كبرائنا، من أسر أنفسنا.

أسود أيام حياتنا جاء عندما استيقظنا فلم نجدك بيننا، بحثنا طويلاً ولم نعثر عليك، حتى سلحفاتك اختفت؛ فتمرّغنا في التراب. من تشبّثوا بالأمل قالوا إنك عبرت إلى أرض الخلاء لتلتقي مواليد النور بعد طول غياب، وستعود. لكنّ أغلبنا ذهب إلى أنك غرقت في النهر ورحلت عنا للأبد. هناك من ظنوا كبراءنا، الذين لم ينسوا ما فعلته بسلطانهم؛

قد قتلوك، وطلبوا أن نجلبهم جميعًا فنذبحهم عند النهر ثأرًا لمُعْتِقنا، إلا أن أحدًا لم يستمع إليهم.

لبثنا لشهور نبحث ونتأوّل التفسيرات، إلى أن يئسنا من عودتك. بعضنا، وكنتُ منهم، ظلّ الأمل بداخلهم دومًا أنك ستظهر بيننا ذات يوم، كأنّك لم تغب عنا، كما فعلت في غيبتك الأولى.

لكنّك لم تعد يا سيّدنا، رحلت بعد أن تركت بيننا وصاياك وذكراك المنعشة. وهذه المرة لم ننسك قط».

(١٣)

«مُحبّوك اجتمعوا في حضور الحاكم، وقالوا إن علينا اختيار واحد منا ليحلّ محلك، فتقدّمتُ الصفوف، ووضعتُ نفسي تحت إمرتهم. لم أكن أتصوّر أحدًا غيري أولى بأن يُرشد الناس من بعدك، أنا الأقرب إليك، أكثر من جلس معك وتشرّب بحكمتك، رافقتُك كظلّك، وكنتُ خادمك.

وما كان أشدّ ذهولي عندما فوجئتُ بهم يُنحّونني جانبًا، ويختارون واحدًا منهم وينصبونه ساعد المُعْتِق في إرشاد الناس. صرختُ بهم: من منكم سقاه وأطعمه في فمه مثلي؟ من منكم سهر على مخدعه طوال الليل يحرسه مثلي؟ أغلبكم صدّقتموه بعد لقائه مع الحاكم، عندما انتصر وصار آمنًا، أنا من كنتُ معه عندما كان السفهاء يقذفونه بالحجارة. كشفتُ لهم عن الكدمات في ظهري وأريتهم الندبات في وجهي، كلّها أصابتني

وأنا أحميك بجسدي، أشرتُ للساعد الذي اختاروه وهتفتُ به: ألستَ ابن أحدهم؟ ألم يكن أبوك يدفع للملاعين كي يلقوا الأوساخ في وجه المُعْتِق في أثناء مروره في الطرقات؟ تعالَ وشمّ رائحة وسخكم الذي ملأ ثيابي وثيابه، ما زالت رائحته عالقة بجسدي، أيها المُخاتِلون الملاعين.

ضحكوا ورمقوني بإشفاق، قالوا إنك يا سيّدنا كنت كريمًا متواضعًا، تتباسط مع الجميع، كلّ من تعامل معك أو اقترب منك سيظنّ أنه كان الأقرب لك. قالوا إني واهم، لستُ الأقرب للمُعْتِق، كلّهم كانوا معه، كلّهم أحبّهم وأحبّوه.

تتصوّر يا سيّدنا أنهم أهانوني بأمي؟! ذكّروني بأنها كانت عاهرة القرية، وأنهم لا يعرفون لي أبًا. ضحكوا وهم يتسابقون في حكي ما وصل إليهم من قصص طفولتي معها، قالوا إنها كانت تطردني دومًا من البيت ليخلو لها مع عشّاقها، وتضربني وتركض ورائي في الشوارع إن عدت مبكرًا. تناسوا أني تبرأت منها منذ وعيت على الدنيا، تظاهروا أنهم لم يسمعوك وأنت تنهر الناس عن إيذائي بها، وأنك قلت لهم إنك أخي ونسبك من نسبي.

تركتُهم وأنا أغلي، سرتُ بين الناس أحرّضهم وأهتف بهم: هل يصحّ أن يضعوا أحدًا، مهما كان، مكان المُعْتِق العظيم؟ هل هناك من يرقى لمقامه؟ هل هناك من يستطيع إرشاد الناس مثله؟

صرتُ شوكة في حلوقهم.

ما زلت أذكرك يا سيّدنا عندما رمقتني ذات ليلة وقلت لي بحزن: «سأشقى بك وتشقى بي»، وقتها لم أدرك ما تقصد، غير أنني الآن أفهم.

صرت أسترجع مواقفك معي، كم كنت تقرّبني دون باقي رفاقي، وتهمس لي: «لستَ أحبَّ إليّ منهم، لكنّي أحميك من نفسك»، أحيانًا كنت ألمح جفوة في عينيك، قد تدوم أيامًا فأشقى بها، إلا أنك ما تلبث أن تقرّبني من جديد، تشدّني إليك وتحتضنني، وأفاجأ بك تطلب مني أن أسامحك، أأنا من يسامحك يا سيّدنا وأنت من أنت وأنا من أنا؟ بعض الأوقات كنت أرى الدموع في عينيك وأنت تنظر إليّ، توصيني بوصايا لي وحدي، تقول لي اصبر وإياك أن تؤذي مخلوقًا، إياك أن تنسى، فأعاهدك أن أفعل. كنت تسبغ عليّ الشرف تلو الشرف، إن ضاقت بك الأيام وقسوت عليّ، تعود وتعوّضني، تطالعني دومًا كأنّك تشعر بالذنب نحوي، وبعد كلّ هذا يقولون إنني لم أكن الأقرب إليك؟!

تذرعت بالصبر كما أمرتني يا سيّدنا، لكن كيف أصبر وأنا أراهم يبدّلون وصاياك؟ عندما سمح الساعد الأعظم، ذلك المخادع الملعون، بأن يتولّى الغني الواحد من قريتنا عشرة فقراء، بدلاً من عشرين، ثرتُ وهتفتُ في الناس أن ذلك مخالفة فجّة للوصايا، وأنه إن كان لا بدّ من خفض العدد، فليكن خمسة عشر وليس عشرة. أحد الشباب قال إن العدد غير مهم، ما قصده المُعْتِق أن كلّ الأغنياء عليهم تولّي كلّ الفقراء، فهتفتُ به أن يتوقف عن السفسطة، قلت له إنني أدرى منه بالوصايا، أنا من جلس بين يديّ المُعْتِق يتلقّى الأنوار منه مباشرة.

خفض الساعد العدد، بعد ذلك، إلى خمسة فقراء، ثم اثنين. وبعد مرور سنة واحدة على رحيلك يا سيّدنا؛ ألغى الساعد الأعظم، المُخاتِل الملعون، تولّي الأغنياء للفقراء. قال إن المُعْتِق ودّ أن يساعد الفقراء. تكفُّل الأغنياء بهم كان البداية، لكن لو استمرّ الآن فسيُفسدهم. أخبرنا

أن أكبر مساعدة نقدّمها لإخواننا الفقراء أن نتركهم يعتمدون على أنفسهم، يشقّون طريقهم بسواعدهم، ونحن معهم وحولهم، نرشدهم وننصحهم.

قال إن المُعْتِق أمرنا أيضًا أن نختار حكّامنا بأنفسنا، كلّما رحل واحد اخترنا آخر من بيننا، وما لا نعرفه أن تلك الوصية تحوي استثناءً هامًا ذكره المُعْتِق، ربما لم يصلنا، لكنّ محبّيه يعرفونه. فإذا كان حاكمنا ينتمي لأسرة طيّبة، تربّى أبناؤها على العدل وحُسن الخلق، فلا مانع أن يخلفه ابنه ليستمرّ الخير. ورفع يد الحاكم، الذي كان يقف بجواره، وبشّرنا بأن الشروط تنطبق على حاكمنا وابنه، فهنيئًا لنا بسلسال الخير.

حتى وصيتك بالأشجار لم تسلم من خبثهم؛ الساعد سمح للحطّابين بالعودة إلى قطع الأشجار لتزويد الناس بالحطب، قال إن الأشجار بركتنا، وستسعد عندما نتدفأ بها ونصنع منها أثاثنا، أما الأشجار التي لن نحتاجها فسنعتني بها كما أمرنا المُعْتِق!

رفضتُ كلّ التغييرات، هتفتُ بالناس أن وصاياك يا سيّدنا غير قابلة للتعديل، يجب اتّباعها كما هي، كلّ حرف منها، وإلا صارت وصايا أخرى غير وصاياك. تلوتُ عليهم ما سمعتُك تقوله من وصايا. أحبّ الناس الاستماع لكلماتك التي أرويها، أنا الذي سمعها لحظة نطقك بها، فأحاطوا بي واستزادوا مني، فصرتُ أسرد عليهم كلّ ما سمعتُه منك، أعصر ذاكرتي لأتذكّر كلّ كلمة نطقتها، كلّ همسة همستها، كلّ فعل قمت به، كلّ موقف مرّ بنا. كنتُ أقصّ عليهم كيف كنت تعاملني وتقرّبني، فتزداد نظرة الإعجاب في أعينهم نحوي.

قلّدني آخرون، فأخذوا يقصّون على الناس ذكرياتهم معك، أخبروهم بكلّ الطرق التي سرت عبرها، الأشجار التي نمت تحتها، الأماكن التي جلست فيها تخبرنا بالوصايا، فوضع الناس علامات على تلك البقاع، وصاروا يزورونها ويطوفون بها مُتلمّسين السَّعْدَ منها. جاراهم الحاكم، فأحاط المنطقة التي سقطتَ منها في النهر بسياج مُطعّم بالجواهر، ووضع الحرّاس حوله، وسمح للناس بدخوله بعد خلع أحذيتهم، وأصبح الساعد الأعظم، الوغد الملعون، يذهب هناك مرة كلّ شهر؛ ليخطب في الناس ويحدّثهم عن الوصايا.

وأطلقوا عليك يا سيّدنا ألف لقب، كلّ من استطاع أن يبتكر لقبًا ابتكره وخلعه عليك، وتناقله الناس عنه، إلى أن أعلن الساعد الأعظم، المحتال الملعون، أنه اجتمع مع من بقي من مُحبّي المُعْتِق وتدارسوا كلّ الألقاب المنتشرة بين الناس، واختاروا منها مئة لقب لائق يمكن للناس استعمالها، أما بقية الألقاب فهي فاسدة، ويحظر استخدامها. كلّمتُ الناس عن أنك لم تكن تُحبّ الألقاب، وأننا كنا نخشى أن نسمّيك المُعْتِق كي لا تغضب، شتمت الساعد ومن اتّبعه ورميتهم جميعًا بالميل عن تعاليمك. لكنّي بينما أقصّ على الناس أقوالك ذات يوم، وصفتُك بالعابر للنهر، فأُعجب الحضور بالوصف، وتناقلوه عني، واستحسنت الأمر ووجدت فيه فائدة، فصرتُ أصفك دومًا بالمُعْتِق العظيم عابر النهر.

بعض من كانوا يحضرون مجلسي انفصلوا، وأقاموا مجالس أخرى، جمعوا الناس حولهم في المقاهي والحانات وحدّثوهم بما سمعوه مني. غاظني ذلك، وأدركتُ أن كثيرًا ممن يجالسونني يسعون فقط لجمع الحكايات مني ليقصّوها على الناس فيما بعد. لما كثر هؤلاء، أصدر

الساعد الأعظم، ذلك الماكر الملعون، أمرًا بألا يتكلّم أحد في حكايات المُعْتِق العظيم إلا بعد الحصول على رخصة منه. لم تكن معي رخصة، لكن من يجرؤ على منابزتي وأنا أمين سرّ المُعْتِق العظيم؟

نفد مخزون الحكايات مني، فكنتُ أخبرهم بما أتوقّع أنك كنت ستقوله، لم أكذب عليهم يا سيّدنا، كنتُ واثقًا أنك مثلي لا تُحبّ النساء ولا تثق فيهنّ، فكلّهن عاهرات لا يأمن المرء جانبهن. وكنت أعرف أنك لو امتلكتَ العدّة والعتاد لهاجمتَ القرى المجاورة وأخضعتها لبركة الوصايا. وبالتأكيد تكره أمثال الساعد الأعظم ومن معه، وتتبرّأ منهم.

ولم أخبر الناس بأكثر من هذا.

قلتُ لهم إنك أسررت لي ذات يوم أنك سترحل عن قريب، وسيأتي من بعدك سواعد كذبة يأخذون مكانًا ليس لهم، قلتُ لهم إنك لعنت هؤلاء وأمرتني أن ألعنهم في كلّ وقت وحين. ألم تكن يا سيّدنا ستلعنهم إن رأيت ما فعلوه من بعدك؟ ألم تكن ستلعن الحاكم الذي يعضد الساعد الأعظم، ذلك الكذّاب الملعون؟ هذا ما أخبرتُه للناس، لم أزد على ما كنتَ ستقوله.

وفي اليوم التالي جاءني رجال الحاكم ومعهم أمر من الساعد الدجّال يمنعني من الحديث عن المُعْتِق. لم أستطع أن أفعل، حاولتُ كي لا يجلدني الحاكم، وكلّما توقّفتُ فترة؛ أجد الناس قد مالوا إلى ما يقوله الساعد الكذّاب وصدّقوه، فأخشى أن تضيع وصاياك، وأعود رغمًا عني لأحفظ ما بقي منك. الناس كانوا بحاجة إليّ لأكشف لهم الوصايا الحقّة من الزائفة، أنا الذي كنتُ رفيقك، ناولتُك بيدي

طعامك وشرابك، كيف أصمت وأدع وصاياك تضيع؟

جلدني رجال الحاكم خمسين جلدة، وطردوني من القرية قبل طلوع النهار، قالوا إنهم سيذبحونني إن عدتُ، فغادرت قريتنا، التي شهدت آثار خطواتي بجوار خطواتك، ورحلت وآثار جَلْدِهم تملأ روحي قبل جسدي».

(١٤)

هتفت شادية، لما لمحت التأثّر في عينيك:

«لا تكن ساذجًا، جدّك وغْد، ما قرأته أكّد ظنّي!»

قلتَ لها مدافعًا:

«لكنّه عانى كثيرًا، دافع عن وصايا المُعْتِق حتى النهاية!»

نفخت بضيق وهي ترمقك بنفاد صبر:

«هل صدّقت حكايته؟! المُعْتِق لا وجود له، وإلا حدّثنا عنه وتفاخر بصلته به، وعرض علينا وصاياه. جدّك اختلق تلك القصة لأنه هكذا يودّ لو يكون: تابعًا مخلصًا لمُصلح عظيم، يسير على دربه ويتبع خطاه، ويقف في وجه من يبدّلون تعاليمه!»

تشبّثت برأيك، شعرت في نفسك القوة لتخالفها وتقول:

«لا يمكن أن يختلق كلّ هذا، مشاعره واضحة في ما كتب، ما كان باستطاعته أن يكتب بهذه الحرارة عن شيء لم يقع!»

فردّت عليك محاولة السيطرة على أعصابها:

«بإمكانه ذلك، يا أحمق، لو تصوّر أنه حدث. جدّتك تقصّ علينا طوال الوقت قصصًا لم تقع، ونحن نصدّقها!»

فكّرت للحظة أن تصمت وتترك الأمر كما هو، لا تعارضها كي لا توجّه سخطها إليك، إلا أن بذرة تمرد صغيرة، كانت قد نشأت في صدرك هذا الصباح، جعلتك تعود فتقول بإصرار:

«لا دليل على ذلك، أنتِ فقط تحاولين أن...»

قاطعتك بغيظ:

«أيّ دليل؟! ألم تفهم ما قرأت؟ جدّك انقلب على ورثة المُعْتِق لأنهم لم يشركوه معهم، لو أنهم ضمّوه إليهم وقدّروه لمشى بين الناس يقنعهم بالتخلّي عن الفقراء. جدّك كذب على أستاذه ووضع على لسانه ما لم يقله! كذب عليك لتبقى في الكوخ ولا تخرج. ماذا تريد أيضًا لتعترف بأنه وغد؟!»

وجدت نفسك تردّ عليها بلا تفكير:

«فعل ذلك مدفوعًا بنيّة نبيلة، الناس ما كانت لتصدّقه لو كان الكلام كلامه هو، لا كلام المُعْتِق، جدّي كان يريد الخير للناس، فكذب عليهم. وكذب عليّ لأنه اقتنع أن في خروجي هلاكي. أعرف أنه آذاني، لكنّي

أثق أنه فعل ذلك وهو يريد مصلحتي. ألم تقولي أنتِ نفسكِ أن الكذب ليس دائمًا خطيئة؟!»

هتفتْ بانفعال:

«خداع الناس أكبر خطيئة، مهما كانت النيّة وراءه! أنا كذبتُ لأحصل على حقّي، وحقّك، في فعل ما نشاء، في الخروج من الكوخ وقتما نريد، لم أخدع أو أؤذِ أحدًا!»

عدت تقول، وقد أعجبك أنك صرت تقارعها الحجّة بالحجّة:

«وما الفرق بينكِ وبين جدّي؟ كلاكما يكذب ليصل إلى ما يريد، كلاكما لديه هدف يقتنع بنبله ويسعى لتحقيقه بكلّ الوسائل!»

هتفت بثورة عارمة، مخاطرة بأن تُوقظ النائمين:

«لا فائدة منك! مهما حاولتُ مساعدتك تظلّ في نفس المكان الذي وضعك جدّك فيه، لن تتغيّر. كان يعجبني فيك براءتك، كنتُ أحبّ نظرة عينيك الحائرتين، كنتُ أقول لنفسي: سأظلّ أختاره دومًا، لو عشنا ألف حياة فسأختاره في كلّ واحدة. والآن أدركتُ أنني ارتبطتُ بك فقط لأنه لا يوجد غيرك، لا خيارات أمامي، وإلا ما كنتُ سأهتم بجبان غبي مثلك، ما كنتُ لأهب نفسي لعبد مثلك!»

تجمّدتَ في مكانك مع كلماتها. جذبت الدفتر من بين يديك بعنف، وهي تُكمل:

«سأعيده لمكانه. أنت لن تتغيّر، وأنا ما عدتُ بحاجة لسماع المزيد!»

هتفت بها:

«لكن.. ما زال هناك الكثير لنقرأه، جدّي وجدّتي نائمان، ولن يستيقظا قبل بضع ساعات، عندما يحين الفجر».

فلم تردّ عليك، تركتك في مكانك ذاهلاً، وغادرتْ كالعاصفة.

(١٥)

بقيت في مكانك لا تتحرّك، توقّف الزمن، تمنيت لو لم تُوجد، تختفي كأن لم تكن. ثم فجأة، وبغير توقّع، أجهشت في البكاء، فقدت السيطرة على نفسك، وأخذت تنتفض دون أن تقوى على التوقّف، تشعر بالشفقة على نفسك، لم تكن تستحق أن تصفك شادية بما وصفتك به. كنت تظنها تريدك صاحب رأي، عارضتها معتقدًا أنه سيُسعدها أنك صرت قادرًا على الخروج من ظلّها، حتى لو أخذت جانب الجدّ. أنت حتى لم تكن تدافع عن الجدّ، بل عن حقّك في أن تخالفها. تَحَطُّم صورة الجدّ أمامك هذا الصباح، بمساعدتها هي نفسها، جعلك تدرك أنه ليس هناك أحدٌ كامل، كلّنا لدينا نصيبنا من الضعف، وكلّنا علينا أن نتفهّم الضعف لدى من نحبهم، ونلتمس لهم العذر، كما نودّ منهم أن يفعلوا معنا. وأنت سئمت إصرار شادية

على النظر بعين واحدة، لماذا ترى الجدّ دومًا بنفس الصورة، لماذا لا تضع في حسابها أنه قد يجمع بداخله أكثر من جانب؟ كلّ ما أردتَه أن تحملها على أن تراه كما تراه أنت. لكنّها أرادتك فقط أن توافقها، تمضي في نفس طريقها، فليت كلّ شيء ينتهي الآن، في التوّ واللحظة، ينشق العالم عن حفرة سوداء تبتلع كلّ شيء، وينمحي أثرك.

هدأت قليلاً، ثم بدأ الغضب يتسلّل إلى نفسك. شادية تستحق ما يفعله الجدّ بها، لا شيء يرضيها ولا تلتمس الأعذار لأحد، لا تمتلك الحكمة لتُوازِن الأمور، هل تعتقد أنها ستُغيّر أيّ شيء بحدّتها وعصبيتها؟ في الصباح ستواجهها، ستصارحها بأنها ضيّقة الأفق، لا يمكنها أن ترى أبعد من أنفها، وأنك لست كما وصفتك، وهي أيضًا ليست كما وصفت نفسها، ليس كلّ همها مساعدتك، بل تسعى لمصلحتها، تريدك أن تصحبها لتغادر الغابة، لا تقوى على فعلها وحدها، تودّ أن تصل إلى البشر الذين تظنهم يعيشون في الخارج. لا يا شادية، ما كنتِ لتختاريني ألف مرة، أنتِ تفعلين كلّ هذا لتتاح لكِ اختيارات أكثر.

لبثت لا تقوى على الحركة، إلى أن سمعت صرخة شادية الأولى، فانتفضت من مكانك رغمًا عنك وهرعت إليها.

أمام حجرة الجدّ رأيته يلفّ قبضته على شعرها ويجرّها خلفه، تحاول فكّ نفسها ونظرة ذعر في عينيها، بينما الجدّة متعلّقة في ساقه تتوسّل إليه أن يتركها. ألقيت بنفسك أمامه بلا تفكير، وجذبت يده القابضة على شعرها، وأنت تهتف به:

«دعها يا جدّي، لا شيء يستحق أن تقسو عليها!»

دفعك بيده الأخرى بعيدًا وهو يصرخ فيك:

«ابتعد! أنت لا تعرف ما فعلته تلك الملعونة الفاسقة!»

كدت تهتف به أنك تعرف، وأنك شاركتها كلّ شيء، إن كنتَ ستعاقبها فلتأخذني معها، بدا ذلك في عينيك، لأن شادية رمقتك بنظرة متوسّلة ألا تفعل، أن تبقى بعيدًا كما أمرك الجدّ. هالتك نظرة اليأس في عينيها، كأنّها تعرف ما تُساق إليه، ولا تملك شيئًا حياله، الجدّ لن يعاقبها ليردعها هذه المرة، بل سيقضي عليها.

قطّة شادية السوداء أفزعتها الضوضاء، فأطلقت مواءً منزعجًا، وأسرعت تختبئ في حجرة صاحبتها، وانكببت أنت على يد الجدّ تقبّلها وتتوسّل إليه أن يترك شاديتك، تتساقط دموعك فوق أصابعه، وأنت تعده أن تكون طوع بنانه، ستفعل كلّ ما يطلبه منك، ستصدّق كلّ ما يخبرك به، ستكون خادمه المطيع. حلّفته بالمُعْتِق، حبيبه، أن يتركها هذه المرة، وإن عادت لمخالفته فليفعل بها ما يشاء، لكنّه كان منشغلاً بشادية فلم يسمعك. زدت في توسّلاتك، فلطمك بقبضته الحرّة لتسقط بعيدًا، وركل الجدّة لتترك ساقه، وهو يتّجه بشادية نحو المطبخ.

ـ «الملعونة ظنّتني نائمًا، استغفلتني، حاولت سرقة أثمن ما لديّ، ضبطتُها وهي تمدّ يدها تحت سريري لتأخذه، لا يُحدّثّني أحدٌ بشأنها!»

أسرعتَ وراءه مع الجدّة، لماذا يأخذ شادية للمطبخ؟ ماذا سيفعل بها؟!

على ضوء القمر الشاحب، المتسلّل من نافذة المطبخ، رأيته يقف

فوقها ممسكًا بالسكّين بيد، وباليد الأخرى يجذبها من شعرها، وهي مستلقية تحته لا تأتي بحركة، رفع السكّين فوق رأسها، وأنت تصرخ بلوعة، وهوى بها على رأسها.

ـ «أرجوك، لا، ليس شعري!»

كانت المرة الأولى التي تسمع فيها شادية تتوسّل، إلا أن الجدّ هوى بالسكّين مرة وثانية وثالثة، وفي كلّ مرة كان يُلقي المزيد من خصلات شعر شادية الناعم، في كلّ مرة كانت تصرخ متألمة، والجدّ يُعمل السكّين بغلّ في خصلاتها التي يقبض عليها بقسوة، إلى أن تنفصل عن رأسها. صمتَّ أنت والجدّة ترقبان ما يحدث غير مستوعبين.لم يتوقّف الجدّ إلا عندما اختلف شكل شادية، لم يعد في رأسها إلا خصلات قصيرة شعثاء غير منضبطة.

هدأت نفسك، لو سيكتفي بقصّ شعرها، أجمل ما فيها، فيمكنكما تحمّل ذلك. شعرها سينمو من جديد، وستنسيان ما حدث، المهم أن تبقى هي. غير أن الجدّ ألقى السكّين عندما فرغ، وعاد يجذبها من كتفها لتنهض. بدت متهالكة كما رأيتها في الأيام الماضية، عندما كانت تدّعي الاستسلام؛ عادت نظرة الخواء في عينيها، وتهدّل كتفيها، وفي هذه المرة أدركت أنها لا تتظاهر.

دفعها الجدّ أمامه إلى باب الكوخ، فتحه وألقاها إلى الخارج، ووقف سادًّا فتحة الباب بجسده:

«لا مكان لكِ بيننا، استنفدتِ كلّ فرصكِ، لو رأيتُكِ مرة أخرى سأذبحكِ!»

حاولتَ أن تُزيحه وتستعيدها، هتفت به:

«لا يمكنك تركها، إنها حفيدتك!»

التفت إليك، ورأيت عينيه حمراوين قاسيتين:

«ليست حفيدتي، بل ابنة الغيلان، فلتذهب لتعيش مع أهلها!»

وأغلق الباب بعنف، لتختفي شادية من أمام ناظريك.

أسرعت إلى الباب بلوعة، فهتف بك:

«إيّاك أن تفعل! لو فتحت هذا الباب سأعتبرك آبقًا!»

توقّفت لوهلة أمام الباب، فقال بلين:

«أطع جدّك ومُؤدِّبك وعد إلى حجرتك».

ولما وجدك متردّدًا، عاد يقول:

«أعرف تعلّقك بها، لكنّها ليست كما تظنّها، فتاة شريرة مثلها لا تليق بك».

كلماته أشعرتك بالغضب، التفتَّ إليه وهتفت:

«مهما فعلتْ، لا تستحق أن تفعل بها ما فعلتَ!»

طالعك مندهشًا، بينما جذبت الباب لتفتحه على اتساعه، وأنت تنادي بلوعة:

«شادية!»

لم تكن في الخارج. تردّدت قليلاً، ثم حسمت أمرك وخرجت إلى الحقل، أخذت تتلفّت حولك، فلم تجدها. ركضت حول الكوخ كالمجنون متناسيًا خوفك، لكن لم يكن لها أيّ أثر.

(١٦)

حبسك الجدّ في حجرتك.

قيّد يديك بحبل، وربط الحبل في قائمة السرير، وقال قبل أن يغلق الباب:

«عصيانك لي أوصلك لما أنت فيه الآن!»

فوجئ بك تهتف به:

«أدرك شادية يا جدّي، أدركها قبل أن تضيع منا!!»

فضرب الباب خلفه بعنف، ليتركك وحيدًا مع أفكارك. فكّرت أن تصل للنافذة لترقب الحقل، لعلّ شادية تظهر أو تُطلّ من بين أشجار الدغل، فتضرب بوجهك زجاج النافذة لتلفت انتباهها، وتأتيك فتحاول إقناعها بأن تعود، بأن شعرها سينمو من جديد، أو لن ينمو؛ ليس

مهمًا، ستظلّ شادية بالنسبة لك بشعرها أو بدونه. تقول لها إن الأمور ستختلف من الآن إن عادت، ستقف معها أمام الجدّ وستنتزعان منه كلّ ما تريدان، تُخبرها أنك لست كما تظن، أو على الأقل ستحاول ألا تكون، تسألها إن كانت تعني فعلاً أنك لست أهلاً لها؟ هل كانت ستختار غيرك إن كانت هناك فرصة؟ أسئلة تمزّقك لتصل إلى إجابتها؛ إلا أن الحبل كان قصيرًا لا يصل للنافذة.

قرب الظهيرة جاء الجدّ، طالعت في عينيه نظرة حزن. فكّ قيدك، وهو يغمغم:

«أنت أجبرتني على هذا، ما كان عليك أن تعارضني، أهذا ما تعلّمته مني؟ تُعارض جدّك!»

فوجئ بك تقاطعه بلوعة:

«شادية يا جدّي، هل عادت؟ هل وجدتها؟!»

رمقك بلوم، وغادر الحجرة وهو يقول دون أن ينظر إليك:

«انسَ شادية، شادية اختارت مصيرها».

وأغلق الباب وراءه بالمفتاح، وأنت تصرخ من خلفه:

«شادية كانت تحاول أن تحرّرني، أعدها واطردني مكانها، أنا السبب في كلّ ما فعلَتْه!»

لم تره بعدها. الجدّة كانت تأتيك بالطعام فتضعه أمامك. حاولتْ في المرة الأولى أن تُكلّمك وتنصحك بإرضاء الجدّ، لكنّك أشحت

عنها، فتركتك حزينة. في المرة التالية، وهي تحضر العشاء، قلت لها بألم:

«شادية يا جدّتي، ستتركينها تضيع في الغابة؟ إن كان هو قد قسا قلبه فأين قلبك الطيّب!»

بكت بين يديك وأخبرتك أنها ألحّت عليه أن يبحث عنها، فرفض أن يسمعها.

ـ «اسمها يثير أعصابه، كاد يضربني عندما فاتحته في الأمر ثانية. كبدي منفطرة عليكِ يا ابنتي، لكن ماذا بيدي لأفعله!»

قضيت الليلة واقفًا أمام النافذة، لا تُحوّل عينيك عن دغل الأشجار، لم تعد تخشى الغيلان، تترقّب أيّ حركة علّ شادية تظهر. الجدّة رأتك في وقفتك تلك وهي تُحضر الإفطار، فلم تُعلّق. وقرب الظهيرة فوجئتَ بالجدّ واقفًا أمام النافذة ومعه مجموعة من الألواح الخشبية، ففطنت إلى ما سيفعله. لم يستمع لتوسلاتك وهو يدقّها بعرض النافذة، حتى حجب الضوء عنك.

لم تيأس، حاولت طوال الليل إحداث ثقب صغير في إطارات الخشب مستخدمًا قلمك. انكسر القلم، لكنّك لم تكن تُفكّر، جزعك على شادية كان يحرّكك.

النقرة الصغيرة التي نجحت في صنعها لم تكن واضحة، فلم يلحظها الجدّ ولا الجدّة، وكان من الصعب أن تنظر من خلالها، إلا أنك لبثت تراقب ظلام الليل عبرها، آملاً أن تظهر شادية.

رفضت أن تأكل، قلت للجدّة إنك ستمتنع عن الطعام إلى أن تعود

شادية. لم تأخذك بجدّية في البداية، لكن لما عادت ووجدت صحفة الطعام كما هي لم تمسسها، بدأت تقلق، وهدّدتك بأن تُخبر الجدّ.

ـ «وماذا سيفعل؟ يحبسني؟ يمنع عني الطعام؟ يؤذي شادية؟!»

طريقتك في الكلام أفزعتها، لم تعتدك هكذا. شكلك أيضًا أفزعها، لا بدّ إن السهر طوال الليل ترك أثره في ملامحك.

قلت لها بلهجة ألْيَن:

«ستفقديني أنا وشادية يا جدّتي، سأتوقف عن الطعام إلى أن أموت، وجدّي لن يجبرني على الأكل رغمًا عني!»

سألتك بقلق:

«ماذا أفعل لتكفّ عما تقوم به وتأكل؟»

أجبتها بلهفة:

«أريد الخروج للبحث عن شادية، صدّقيني سيكون هذا في صالحنا جميعًا، ربما لم تبتعد كثيرًا، سأجدها سريعًا وأقنعها بالعودة، وسأصلح بينها وبين جدّي!»

طالعتك بأمل، فأكملت بحماس:

«ساعديني لأتسلّل من الكوخ، لن أغيب طويلاً، قبل طلوع النهار سأعود ومعي شادية!»

باغتها كلامك، فارتُجّ عليها للحظات، ثم لم تلبث أن قالت بحزم:

«إن وافق جدّك على هذا سنفعله، لا يمكننا مخالفة جدّك!»

وتركتك دون أن تستجيب لتوسّلاتك.

بعد يومين جاءك الجدّ مبتسمًا:

«انتهى حبسك، لن أغلق الباب عليك بعد الآن، لكنّ نافذتك ستظلّ مسدودة. إن أحسنت السلوك خلال الأيام المقبلة سنستكمل دروسنا، فراقب نفسك جيدًا».

لم تردّ عليه، لكنّك حرصت على ألا تتطلع إليه بتحدٍ كي لا تستفزّه.

وعندما حان موعد الغداء ونادتك الجدّة؛ جلست إلى مائدة الطعام التي أعدّتها، تلاحظ بطرف عينك نظرات الجدّ التي تتفحصك. استلهمت ما فعلته شادية وتظاهرت بالاستسلام، رسمت ملامح الندم على وجهك، أو هكذا حاولت، وتناولت طعامك كلّه ثم طلبت المزيد، فلا تدري متى ستتاح لك الفرصة لتأكل ثانية.

وفي الليل، وبعدما تأكّدت من أن الجدّ أوى للنوم هو والجدّة؛ تسللت من حجرتك. أسرعت إلى باب الكوخ، محاذرًا أن تصدر صوتًا يوقظ أحدًا. تعرف أنك تأخرت على شادية بما فيه الكفاية، وما عاد هناك وقت لتضييعه. مددت يدك إلى الباب، وأنت تتذكّر تلك الليلة البعيدة، عندما قادتك إلى الخارج أول مرة. اختلف الأمر الآن، ما زلت ترهب ما قد تجده في الخارج، لكن لا خيار أمامك. جذبت الباب بحذر، فلم يستجب، كان مغلقًا بالمفتاح. الجدّ سدّ أمامك

جميع السبل، نافذتك مسدودة وباب الكوخ موصد، لا يمكنك فتحه عنوة وإلا سمعك. وقفت حائرًا لحظات، ثم اتجهت إلى حجرة شادية، ففوجئت بأن نافذتها مسدودة بالألواح الخشبية كذلك. قطّتها السوداء أسرعت إليك ما إن فتحت الباب، وأخذت تتمسّح في ساقيك، وهي تُصدر مواءً خافتًا. حملتها بين ذراعيك وجلست على السرير، أتفتقدينها مثلي؟ تحسّست فراشها بشجن، وهالك أنه صار باردًا، غادره دفؤها. تأمّلت بحزن ملابسها، أدواتها، الجدار الفاصل بين حجرتيكما، كلّ تلك الأشياء لمستها ووضعت يديها عليها، آه يا شادية، أين أنتِ الآن؟ أيام عديدة مرّت عليكِ بالخارج، هل ما زلتِ بخير؟ لا تستطيع احتمال فكرة أن تكون فقدتها، لن تراها مرة أخرى.

شعرت بالألم يعصر صدرك، وانسابت الدموع من عينيك قبل أن تنتبه، فتركت القطّة، وسارعت بمغادرة الحجرة.

(١٧)

وضعت يدك على مقبض الباب، ثم لم تلبث أن سحبتها. توقّفت قليلاً، محاولاً السيطرة على ضربات قلبك. ألصقت أذنك بالباب لتتسمّع أيّ صوت، أو تؤخّر اللحظة المقبلة قدر الإمكان، ثم أمسكت مقبض الباب من جديد بحذر. ما دامت شادية قد فعلتها فأنت أيضًا تستطيع.

وبينما تُحرّك المقبض ببطء، هاجمك خاطر أن شادية فشلتْ، الجدّ ضبطها، فاضطربتَ وكدت تُصدر صوتًا يُنهي كلّ شيء قبل أن يبدأ.

فتحت الباب ببطء، بأكثر ما تستطيعه من بطء، كلّ بضع ثوانٍ كنت تُحرّكه أقل من عقلة إصبع، تتوقّف للحظات وتتسمّع، ولما تجد أن شيئًا لم يقع، وأحدًا لم يتنبه؛ تُحرّكه من جديد. بعد بضع دقائق أُتيحت فتحة يمكنك أن تدسّ رأسك خلالها، ففعلت بحذر. الحجرة كانت مظلمة،

حتى ضوء القمر المتسلّل عبر النافذة لا يُبيّن تفاصيلها. احتجت لبضع دقائق أخرى حتى اعتادت عيناك الظلام، وبدأت تُميّز الأشياء. لمحت هيكل الجدّ مستلقيًا على ظهره فوق السرير، متدثّرًا بلحافه، وبجواره الجدّة. لم يبدُ عليهما أنهما واعيان، صدر الجدّ يعلو ويهبط بانتظام، فتنفست الصعداء. تأمّلت محتويات الحجرة المعتمة، في الركن بدت طاولة الدرس التي طالما جلست إليها تستمع إلى الجدّ وتُدوّن في الدفتر الأبيض ما يقول. رغم كلّ شيء شعرت بالحنين، لم تجلس عليها منذ أيام.

دفعت الباب برفق لينفتح، وأنت ترقب الجدّ والجدّة، متحفّزًا لأي حركة تصدر عنهما. تحرّكت على أطراف أصابعك كاتمًا أنفاسك، تعرف أن المفتاح معلّق في مسمار بجوار الباب، حتى لو استيقظ الجدّ فجأة، سيظلّ لديك الوقت لتنتزع المفتاح وتركض إلى باب الكوخ فتفتحه وتهرب بعيدًا. مددت يدك إلى المسمار، غير أن المفتاح لم يكن هناك، فاضطربت. تلفّت حولك، من الصعب البحث عنه وسط العتمة. كدت تعود خالي الوفاض، لولا أن تذكّرت شيئًا. اقتربت بحذر من سرير الجدّ، كاتمًا أنفاسك، وعيناك لا تفارقان صدره الذي يتحرك بانتظام، تعرف أنك تُخاطر بكلّ ما لديك، لكنّك يجب أن تحاول. جثوت على ركبتيك بجوار رأسه، ومددت يدك بحرص إلى وسادته. حركة واحدة غير محسوبة وينتهي كلّ شيء، سيربطك إلى قائمة السرير للأبد. كان يضع رأسه على وسط الوسادة، فدسست يدك بكلّ ما تستطيعه من حرص وبطء، وتركتها تتسلّل أسفل الوسادة. احتجت هذه المرة إلى تحريكها ببطء أشدّ مما فعلت مع باب الحجرة، كلّ دقيقة تُحرّكها مقدار شعرة، وتتوقّف دقيقة أخرى مراقبًا رأس الجدّ، كلّ شيء يعتمد على مدى

صبرك، عندما كنت في الخارج راقبت تمدّد ظلّك بفعل أشعة الشمس، كما شرح الجدّ في أحد دروسه، الظلّ لم يكن يكبر مرة واحدة، كان يتّسع رويدًا رويدًا، بصبر ومن دون أن تشعر به، وبعد ساعة تُفاجأ بأنه امتدّ أمامك، بعد أن كان قصيرًا. لذلك تركت يدك تتقدّم ببطء تحت وسادة الجدّ، في الجزء البعيد عن رأسه، وأنت لا تعرف هل ستجد ما تبحث عنه أم لا. لو أن الجدّ تقلّب في نومه، أو تحرّك في مكانه، سينتابك الفزع، ورغمًا عنك ستسحب يدك بسرعة، فينتبه ليجدك بجوار رأسه. تعرف أن أعصابك المنفلتة هي عدوّك الأكبر الآن، لذلك عليك التسلّح بالحرص كما تتسلّح بالصبر. أصابعك المشرعة تحت الوسادة، في حركتها البطيئة، اصطدمت فجأة بالجسم المعدني البارد، فتهلّلت أساريرك، كان الأمر كما توقّعت. قبضت على المفتاح بإصبعين، وبدأت تجذب يدك للخارج، بنفس البطء، وقد أسكرك الانتصار.

ولما كادت يدك تخرج تمامًا من تحت الوسادة، إذا بالجدّ يتحرّك فجأة في فراشه، ويرفع رأسه متسائلاً بلهجة ناعسة:

«ماذا هناك؟»

أصابك الفزع، فسحبت يدك بسرعة، وبدون تفكير استلقيت على الأرض بجوار الفراش وتدحرجت لتصبح أسفله، محاولاً السيطرة على أنفاسك. كلّ شيء انكشف، لن تستطيع العثور على شادية، سيحبسك الجدّ للأبد، إن لم يذبحك بسكّين المطبخ. وأنت أسفل السرير سمعته يتقلّب في مضجعه، ويغمغم ببعض الكلمات غير المفهومة، قبل أن يسود الصمت.

هل مرّ الأمر بسلام؟ كان بين اليقظة والحلم، فلم ينتبه لوجودك، كما فعل مع شادية؟! مكثت جاثمًا أسفل السرير لا تتحرك، لا تضمن مكر الجدّ، لعلّه مفتوح العينين الآن فوق فراشه، ينتظر حركتك ليمسكك. لكنّ الجدّ ليس بحاجة لهذا، إن شكّ في وجودك فسيقبض عليك ويطلق العنان لغضبه في وجهك. وبينما تتنازعك أفكارك، لمحت بجوارك صندوقًا كبيرًا، فتذكّرته. مددت يديك إليه، وبحرص رفعت غطاءه، وتناولت ما في داخله، الدفتر الأسود. ضممته إلى صدرك، وانتظرت في مكانك نصف ساعة حتى تأكّدت أن الجدّ نائم، ثم بدأت تتحرّك ببطء لتخرج من تحت السرير.

بدا الجدّ ساكنًا في مرقده لا يتحرك، فاطمأنت نفسك قليلاً.

في تلك اللحظة تحركت سحابة كانت تحجز القمر، فانساب ضوؤه داخل الحجرة عبر النافذة، وسقط شعاع شاحب على وجه الجدّ، فلمحت عينيه المفتوحتين اللتين كانتا ترمقانك.

صرخت من المفاجأة، فهبّ الجدّ في مجلسه، واستيقظت الجدّة فَزِعَة. أنت لن تذكر هذا الآن، وبالتأكيد لم تنتبه له وقتها، لكنّ الجدّ كان مرتبكًا، لم يكن غاضبًا كما كنت تتخيّل. هتف باستنكار:

«ماذا تفعل هنا؟!»

اجتاحك الرعب، ومن دون أن تشعر قفزت باتجاه الباب، المفتاح في يد والدفتر في يد، ولا هدف لديك غير مغادرة الحجرة، بينما الجدّ يهبّ واقفًا ويسرع للحاق بك. جذبت مقبض باب الحجرة، الذي تركته مواربًا، باليد التي تحمل المفتاح، وشعرت بيد الجدّ التي كادت

تقبض على خناقك من الخلف، لولا أن تحرّكت بسرعة. دفعت مائدة الطعام خلفك، فقلبتها، وسمعت صوت تعثّر الجدّ فيها وهو يهتف:

«انتظر، لا تلقي بنفسك للغيلان!»

بيدٍ مرتجفة دفعت المفتاح في ثقب الباب وحرّكته، وأنت ترمق الجدّ وقد نهض من سقطته، وعاد يركض نحوك وعيناه تنطقان بالشرّ. أمامك ثوانٍ قليلة لتكون خارج الكوخ. إلا أن المفتاح لم يفتح الباب، حاولت معه، ثم لم تلبث أن أدركت أنه ليس مفتاح باب الكوخ، ربما هو مفتاح حجرتك. أُسقط في يدك، في نفس اللحظة التي سقطتْ فيها يد الجدّ الغليظة على مؤخرة عنقك ليجذبك نحوه بعنف.

ـ «تلك الملعونة أفسدتك عليّ!»

أمسك بخناقك وأخذ يهزّك، وفي عينيه المنفعلتين لمحتَ لمعة الدمع.

ـ «لا يجب أن تقرأ هذا الكتاب، لم يحن الوقت لذلك!»

فوجئت بنفسك تدفعه بالدفتر الأسود بعيدًا عنك، ليتعثّر مرة أخرى في المائدة المقلوبة، ويسقط أرضًا. أسرعت والذعر يأكلك إلى حجرته، مررت بالجدّة التي وقفتْ مكانها جامدة وهي تنظر إليك فَزِعَة، تجاوزتها وركضت بكلّ ما تملك تجاه النافذة، عالجت رتاجها، وأنت تسمع خطوات الجدّ الراكضة تقترب من الحجرة. فتحت زجاج النافذة على اتساعه، فلفحك هواء الليل البارد، وبقفزة واحدة اعتليت إفريزها، ثم ألقيت بنفسك إلى الجانب الآخر، في نفس اللحظة التي

قبضتْ فيها يد الجدّ على كاحلك، فسقطت على الأرض الترابية، قدمك داخل الكوخ، بين يدي الجدّ، وجسدك على الأرض في الخارج. جذبك محاولاً إعادتك، لكنّك كنت تدرك أنه لا سبيل للتراجع. من دون تفكير ركلته في وجهه، فصرخ متألمًا، وأفلت قدمك، فنهضت وتناولت الدفتر الأسود الذي سقط منك، وأسرعت نحو دغل الأشجار، بينما صوت الجدّ يصرخ فيك من خلفك:

«عد! أنت ماضٍ إلى الغيلان! عد!»

لكنّك لم تتوقّف.

القسم الثاني

(١)

تأخّرت علينا!

منذ وجدك الجدّ ونحن ننتظرك، لكنّك اخترت تصديقه والبقاء بجواره. الحبّ، كما أخبرناك في المرة الأولى، سكّين ذو شفرتين، إحداهما قد تمزّق قيودك، لكنّ الأخرى قد تنغرس عميقًا في صدرك، وأنت حبّك قيّدك طويلاً، إلا أنه في النهاية حرّرك.

تأخّرت علينا، وكنّا نتابعك، ونريدك. كنت ترانا في أحلامك ندعوك كلّ ليلة، ولا تتذكّر عندما تستيقظ.

أكنت تستيقظ فعلاً، أم تصحو من حلم لا تذكره، لتلج في حلم آخر لا تدركه؟ أحلام داخل أحلام، ما الذي يجعلك واثقًا أنك الآن، بينما نتحدّث إليك، لست تحلم؟ ما زالت هناك الكثير من الأوهام

لتتحرّر من سلطانها، لكن متى ستعرف أنك وصلت لنهايتها وصرت وجهًا لوجه أمام الحقيقة؟ لن تعرف، وسيصبح عليك أن تتحرّر طوال الوقت من كلّ الأقنعة، تُزيل جميع الستائر المسدلة، كلّما رفعت واحدة ظننت أنك وصلت لسريرك، وقبل أن تستلقي عليه، قبل أن ترتاح من عناء الرحلة، ستكتشف أن ستارة أخرى ما زالت تفصلك عنه. ستقضي طوال الليل محاولاً الوصول لترتاح، ولن ترتاح.

الستائر وُضعت منذ مولدك، ربما قبل ذلك، كلّ واحد منهم أسدل ستارته على سريرك، وأنت تهت بينها. كلٌّ منهم يدعوك لتتبعه، يقول تعالَ وسأحرّرك، دعك منهم وكن معي، لتكتشف بعدها أنك استبلدت سيّدًا بسيّد.

مسكين، أنت مسكين، ونحن انتظرناك طويلاً، انتظرنا أن تعرف طريقك إلينا، لكن حتى عندما تصلنا، ما الذي يضمن أننا لسنا مثلهم، وأنك لن تستبدل معنا سيّدًا بآخر؟

(٢)

ليلة هروبك من الكوخ؛ استحوذ عليك الرعب.

ظللت تركض بلا تفكير، لا تهتم بما حولك، الأغصان ترتطم بوجهك، فتزيحها بعصبية، تسقط على الأرض وتتدحرج، وتقف متجاهلاً الآلام والخدوش التي ملأت وجهك وذراعيك، ولا تتوقف. ظننت أن الجدّ يطاردك، كنت تسمع صوت خطواتك المذعورة فتظنها خطواته، وتزداد رعبًا، لو أمسكك فلن يرحمك، لن يكتفي بقصّ شعرك كما فعل مع شادية.

وعندما توقفت لالتقاط أنفاسك، بدأت تدرك ما أنت فيه. الغابة، المكان الذي طالما تأمّلته من خلف زجاج النافذة، ورأيت الغول يعبره أول مرة، ها أنت الآن قد ولجتها، وصرت جهًا لوجه أمامها. تلفّت حولك، وراعك أن الظلمة تطبق عليك من كلّ جانب، لا ترى حولك

إلا هياكل قاتمة لأشجار عملاقة، تشبه الغيلان العمالقة في قصص الجدّة.

الغيلان؟!

التصقت بجذع شجرة وأنت تتلفت حولك بذعر، الغيلان قد تكون في أيّ مكان، قد تنقضّ عليك في أيّ لحظة، لا يوجد مكان لتختبئ فيه، لا يوجد جدار يفصل بينك وبينها، قد تكون خلف أيّ شجرة، تتلمظ جوعًا إليك، وتوشك أن تطبق عليك بأنيابها. ليست الغيلان فقط، الغابة مليئة بمخلوقات لا تعرفها، وحوش جائعة وحيوانات مفترسة، كلّها تبحث عن فرائسها، ولن تجد ما هو أسهل منك، يالك من غبي، ما الذي جاء بك هنا؟!

الغابة دامسة، ونور القمر الضعيف لا يضيئها إلا بالقدر الذي يزيدها رهبة، تسلّل اليأس لقلبك، شادية بالتأكيد ليست هنا، لا أحد يمكنه البقاء وسط هذا السواد، إما أنها غادرت الغابة ووصلت لبيوت البشر الذين كانت تسعى للقائهم، وإما أنها...

لا يمكنك التفكير في ذلك. غير أن كلّ ما حولك، الظلمة والأشجار المقبضة والهدوء المفزع؛ كلّها تقول إنه لا مكان لأحد هنا، إن لم تفتك به الغيلان أو الذئاب، أو وحوش الغابة التي لا تعرف عددها، فسيقضي عليه الفزع.

وبينما تتلفت حولك، لمحت شيئًا داكنًا يتطلع إليك من بين شجرتين بعيدتين، فأصابك الهلع، صرخت رغمًا عنك، وانطلقت تركض من جديد وقد فقدت السيطرة على جسدك، ساقاك تتحركان دون إرادة، ويداك تزيحان كلّ ما يعترض طريقك، يجب أن ترجع إلى الكوخ، كلّ

ما سيفعله الجدّ سيظلّ أقل مما ستتعرض له في هذا المكان الموحش، لا يمكنك أن تجد شادية وحدك، لا يمكنك أن تساعدها، أنت بحاجة لمن يساعدك ويحميك، الجدّ يعرف الغابة جيدًا، ولديه بندقية، ستقنعه باقتحام الغابة نهارًا، وستبحثان عن شادية، وتعودان بها. يجب أن ترجع إلى الكوخ، يمكنك حتى ألا تُخبر الجدّ أنك عدت، ستنام أسفل النافذة، فهي أكثر أمنًا، وعند الصباح وفي ضوء الشمس الآمن تعود للغابة.

ظللت تركض دون هدف، تخشى إن توقّفت أن ينالك الوحش الذي كان يراقبك من بين الأشجار، شعرت به يتبعك، لو التفتّ وراءك ستراه، ركضت حتى تقطّعت أنفاسك، وشعرت بآلام حادة في جنبك، ورأيت نقاطًا حمراء أمامك. لم يعد بمقدورك أن تخطو خطوة أخرى، فتوقّفت لتلتقط أنفاسك، تعبّ من الهواء قدر ما تستطيع، هواء الغابة منعش رغم كلّ شيء، ربما لم تدرك ذلك وقتها، لكنّك شعرت بتحسن، وبدأت الرؤية تتضح أمامك.

وبينما تجثو على ركبتيك بجوار إحدى الأشجار، تحاول استعادة قواك، أدركت للمرة الأولى أنك لن تصل للكوخ، ضللت الطريق إليه، ولن ترى في القريب إلا ظلمات الغابة التي تحيطك، أُسقط في يدك وشعرت بالاختناق، بأنك ضعت، حكمت على نفسك بالموت.

الموت؟!

بدت الكلمة غريبة. تعرفها، لكنّ الوجود بجوار الجدّ جعلها بعيدة، تنتمي لعالم آخر. الجدّ كان يشعرك بالأمان، والآن وأنت وحدك في الغابة، بعد أن اخترت تركه، لم تعد تشعر بذلك، انهار الحاجز الذي كان يقف بينك وبين كلّ ما تخاف.

أصوات غامضة ومكتومة تصلك من عمق الغابة، والأشجار تحيط بك تطالعك ساخرة، والوحوش ستظهر في أيّ لحظة، لم تعد تشعر بقلبك داخل جسدك، وأنت تتوقّع أن تأتي النهاية في أيّ لحظة. فاجأتك حركة بين أغصان الشجرة في الأعلى، ثم اندفع شيء ما من بينها، طائر بدا كأنّه بومة، طار وابتعد في ظلام الليل.

تأمّلت أغصان الشجرة، بدت بعيدة بشكل مؤلم، لكن لم تجد لنفسك سبيلاً آخر. وضعت على الأرض دفتر الجدّ، الذي تصلّبت أصابعك عليه منذ غادرت الكوخ، وتحسست لحاء الشجرة، أقرب غصن من أغصانها يرتفع على بعد أربع أو خمس قامات مثل قامتك المتوسطة.

استجمعت عزيمتك، ومددت يديك إلى جذع الشجرة واحتضنته بكلّ قوتك، ثم رفعت ساقيك ووضعتها عليه.

قبل أن تفعل شيئًا، انزلقت قدماك فسقطت أرضًا. لم تكن السقطة مؤلمة، لكنّك شعرت أن معركتك خاسرة قبل أن تبدأ.

خلعت حذاءك، وشعرت بقدميك تلامسان تراب الغابة، فارتجفت. تحسست لحاء الشجرة فوجدته يفيض بالنتوءات والتعرجات، رفعت يديك على امتدادهما، وتمسكت بأعلى نقطة من ساق الشجرة استطعت الوصول إليها، ورفعت قدميك بحرص، الواحدة تلو الأخرى، ووضعتهما فوق اللحاء. أمسكت بيدك جزءًا آخر أعلى من الشجرة، وأتبعتها بأختها، وقبل أن ترفع قدميك، إذا بيديك لا تتحملان الثقل فتُفلتان، ووجدت نفسك تهوي إلى الخلف وتسقط على الأرض. مقعدتك آلمتك، شعرت أنها تفتتت، لكن لم تيأس، الألم حفّزك، شعرت بنفسك في عمق

التجربة، يجب أن تحاول، لا بأس بتلك السقطتين، لم تتسلق الأشجار من قبل، وستفعلها الآن.

كررت المحاولة، وفي هذه المرة استطعت رفع نفسك بمقدار ذراع، تُثبّت قدميك بحرص على لحاء الشجرة وتتمسك بيديك بأعلى نقطة تستطيع أن تطولها، ترفع يدك بحرص لتتمسك بنقطة أخرى، ومعها تُثبّت قدمك على نقطة أعلى، فتجد نفسك ارتفعت، لكن عندما تحاول رفع يدك الأخرى لتلحق بأختها، لا تستطيع يدك الأولى تحمّل ثقل جسمك وحدها، فتهوي على ظهرك.

في هذه المرة كانت الآلم مبرحة، ضلوعك تئن، وكلّما حاولت التنفس تشعر بالألم يضرب جنبيك. جلست في مكانك تلهث، والعرق يغمر جبينك، تتأمّل قمة الشجرة بانفعال، يجب أن تصبح هناك قبل أن يباغتك على الأرض وحش لا قبل لك به. أمامك عمل طويل، ولا تستطيع تصديق أن بإمكانك الارتفاع لأعلى.

عدت للمحاولة، تضغط عضلات يديك وساقيك لتستطيع التمسك بلحاء الشجرة، ترفع نفسك قليلاً، تتشنج أصابعك وتطفر الدموع من عينيك، ثم لا تقوى على الاستمرار، فتزلّ قدمك أو تُفلت يدك، وتجد نفسك ساقطًا على ظهرك أسفل الشجرة. تئنّ ضلوعك، وتشعر أنك لا تستطيع أخذ نفسك، فتجلس قليلاً لتستريح، وبعد دقائق تتحامل على نفسك وتبدأ المحاولة من جديد.

تمزّق بنطالك، لكنّك تحوّلت إلى أداة من الإصرار، لا همّ لها إلا الوصول إلى أحد فروع الشجرة.

في المرة الأخيرة استجمعت إرادتك وقررت أنك إما تصل لأعلى الشجرة وإما تموت في مكانك، رفعت نفسك، تسلّقت ذراعين، إلا أن المسافة حتى الغصن الأول ما زالت بعيدة. تشنّج جسدك بأكمله فوق لحاء الشجرة، هذه المرة لن تسقط، بعد كلّ الألم الذي تشعر به، بعد كلّ الخوف الذي يملأك، إما تنجح في مسعاك وإما تستحق ما ستنتهي إليه. تحوّلت إلى عَلَقَة ملتصقة بالجسم الذي تتغذّى عليه، لن تتركه مهما حاولوا نزعها عنه. غير أن جسدك خذلك في النهاية، فتراخت عضلات قدميك وذراعيك لتأخذ نَفَسها. أصابعك وحدها بقيت مغروزة بكلّ قوّتها في لحاء الشجرة، فبدلاً من أن تهوي، كما في المحاولات السابقة؛ انزلقتَ على طول الشجرة، لتتكوّم أسفلها، بجروح بطول ذراعيك تحمل آثار نتوءات وتعرجات اللحاء، وأصابع دامية وبعض الأظفار المكسورة.

الألم كان لا يطاق، لم تدرِ بنفسك، لكنّك ظللت محتضنًا الجذع، قابضًا عليه بأصابعك الدامية، ونمت في مكانك أسفل الشجرة، بجوار دفتر الجدّ.

(٣)

أكانت الذبابة ما أيقظك في الصباح أم الشمس، أيهما كان الأسبق؟

لسعتك أشعة الشمس في عينيك، وكانت الذبابة تحوم حول وجهك، تسمع طنينها في أذنيك، ولا تملك الإرادة الكافية لتفتح عينيك، أو ترفع كفّك لتبعدها.

لوهلة ظننت نفسك في فراشك، حاولت التقلّب ففاجأتك آلام جسدك، وفتحت عينيك مندهشًا. رفعت يديك أمام وجهك، وهالتك حالة أصابعك، تأمّلت الخطوط الدامية التي امتدّت من كفّيك حتى كوعيك، تحسست وجهك وشعرت بالخدوش التي ملأته، رمقت ما حولك وبدأت تتذكّر ما أنت فيه، أما زلت حيًا؟! طلع عليك النهار دون أن تهاجمك مخلوقات الغابة المفزعة؟! تحسست الظاهر من جسدك، لم تلدغك أفعى أو عقرب أو حشرة سامة؟!

لم تكن هناك رياح، لكن مع ذلك كان الهواء يعبر إلى جسدك عبر تمزقات قميصك وبنطالك فيزيد شعورك بعدم الأمان. حاولت الاعتدال، ولم تستطع مع الألم، فاكتفيت بالاستلقاء على ظهرك.

الذبابة كانت مُلحّة، تبعدها بيدك فتطير بعيدًا ثم تعود محاولة الاقتراب من وجهك، أغاظتك فأخذت تُلوّح بيديك محاولاً النيل منها، وآلمتك ضلوعك. في الكوخ لم يكن هناك ذباب، الجدّة كانت حريصة على إبعاده كلّما تسلل.

الأشجار لم تعد داكنة كما كانت بالأمس، اللون الأخضر في كلّ مكان، والرياح تتلاعب بغصون الأشجار، فتبدو في اهتزازها كأنّها ترقص رقصة هادئة متناغمة.

كلّ شيء كان يتلألأ في أشعة الشمس، أوراق الشجر تلمع بالندى، وزقزقة العصافير تطغى على كلّ شيء. اقتحمت أنفك رائحة العشب الطازج المبتلّ بالندى فأنعشتك، كانت أجمل من رائحة الطعام الذي تطبخه الجدّة. الغابة بدت بريئة في النهار، تختلف تمامًا عن الغابة الموحشة التي واجهتها بالأمس، أيّ خوف يمكن أن تحمله هذه الأجواء الرائعة؟ رأيت سنجابًا يرمقك بفضول من فوق غصن شجرة قريبة، ولما وجدك تتطلع إليه توارى سريعًا، ومن خلف شجرة أخرى كانت هناك سحلية لا تكفّ عن إخراج لسانها لك، وهي تتلفّت حولها كأنّها لم تقرر بعد إلى أين تذهب. النمل، صديقك القديم، كان يسير في عدّة خطوط على بعد خطوات منك، قادم من حيث لا ترى وماضٍ إلى حيث لا تعلم، لابدّ أنه قريب النمل الذي يمرّ بحجرتك، أو قد يكون نفس النمل، ربما لو تابعت خطّ سيره لانتهى بك الأمر في الكوخ.

بدا عالم الكوخ الآن بعيدًا، كأنّ حياتك فيه لم تكن غير حلم عابر حلمته بالأمس في أثناء النوم، لم تعد واثقًا أن ما مرّ خلال الأشهر الماضية كان حقيقة، الغابة تبدو الآن أكثر واقعية من أيّ شيء آخر تذكره.

حطّ غراب على شجرة قريبة، وأخذ يتطلع إليك بوقاحة، رمقته فلم يتوارَ كالسنجاب الخجول، ظلّ يحدّق بك بتمعّن كأنّه يعرفك، هل كان يتابعك وأنت تتأمّل الغابة من خلف النافذة؟ أزعجتك نظراته فحاولت أن تنهض من جديد، لكنّ عظام ظهرك وأصابعك أنّت بالألم، فقررت البقاء في مكانك إلى أن تستعيد قواك.

أصوات الطيور التي ملأت أذنيك كانت متباينة، لا يمكن التفريق بينها ولا تسميتها، أصوات طويلة وأخرى قصيرة، بعضها يتكرّر مرات سريعة متتالية، وبعضها يتردّد مرات قليلة متباعدة، وكلّها شجيّة توحي بالأمان، أيّ سوء قد ينال المرء في مكان به هذه الأصوات؟ تداخلها يزيدها جمالاً، كأنّها صوت الغابة. الشجرة التي استلقيت تحتها كانت تعجّ بالعصافير، تسمع زقزقتها وحركاتها بين الأغصان دون أن تراها، ربما تراقبك وتخشاك، لا تدري أنك ضعيف مسكين مثلها، ربما أقلّ منها، فهي تحتمي بأعشاشها العالية، وأنت هنا على الأرض، يمكن لأيّ ذئب أن ينالك وقتما يشاء.

الغابة هادئة، هناك مساحة من السكون تبسط سلطانها عليها، حتى مع صخب الأصوات المتداخلة، الصمت يطهّر النفس، والغيلان تركتك طوال الليل، وحتى الذئاب لم تظهر، فممّ كان فزعك بالأمس؟ أكانت شادية صادقة عندما أخبرتك أن الغابة آمنة؟

شادية!

لم تُصدّق أنك نسيتها منذ استيقظت، فيم كان وجودك هنا إن لم يكن من أجلها؟ عليك أن تستعيد قواك سريعًا لتبحث عنها، يجب أن تجدها قبل حلول الليل، ستقطع الغابة من أقصاها لأقصاها إلى أن تجدها.

شعرت بمن يراقبك من دغل قريب، فالتفتّ إليه، ولمحته يتوارى سريعًا، فانقبض قلبك، ثم طمأنت نفسك إلى أنه غير مؤذٍ، لو كان كذلك لما انتظر ليهاجمك. عدت تنظر إلى الغراب فوجدته ما زال يتطلع إليك باهتمام. لوّحت له بيدك وابتسمت له، فلم يتجاوب معك، ظلّ يتأمّلك بنفس النظرة الثقيلة. شعرت أنه تافه لا يجد ما يفعله، وقررت تجاهله إلى أن يملّ ويرحل.

ميزت أذناك صوت ماء قريب، صوتًا يشبه انسكاب الماء من الدورق الذي أسقطته مرتين من قبل على مائدة الغداء، لكنّه متّصل ومستمر، كأنّ أحدهم يسكب الماء طوال الوقت من دوارق لا تنتهي. تحاملت على نفسك مدفوعًا بالعطش ونهضت وأنت تمسك بدفتر الجدّ. الصوت لا يبدو بعيدًا، ربما على بعد عدّة أشجار. لم تدرِ أين حذاؤك الذي خلعته بالأمس، فسرت حافيًا تشعر بوخز الحصى أسفل قدميك، وملمس الصخور التي فرشت الأرض. انكشفت الأشجار عن غدير ماء صغير بين الصخور. كانت هناك طيور بيضاء، طويلة الرقبة والسيقان، تقف هناك وتضع منقارها في الماء وتعبّ منه. انتبهت لما وجدتك تقترب، وابتعدت وهي تتطلع إليك متحفّزة. انحنيت فوق الماء وغرفته بكفّيك وأخذت تشرب باشتياق حتى ارتويت. شعرت بالماء لذيذًا باردًا في

فمك، رششته على وجهك وجروحك فانتعشت. أسعدك أن الطيور لم تفرّ هاربة، بقيت على مقربة منك تشرب من الماء وتتأمّلك بفضول.

بينما تستدير عائدًا، لمحت شيئًا يتوارى سريعًا بين الأشجار، ناديت بصوت مرتعش: شادية؟ فلم يأتك رد. أهو نفس الشيء الذي يتبعك منذ الأمس؟

رفعت عينيك إلى الأشجار، فوجدت الغراب قد تبعك، كان يقف فوق غصن قريب يتطلع إليك بفضول. شعرت بالغيظ، فحملت حصاة من الأرض وقذفته بها وأنت تهتف به:

«دعني وشأني!»

فطار سريعًا قبل أن تصيبه. الحصاة أصابت ثمرة برتقال متدلية من الشجرة، وجعلتها تهتزّ. تأمّلت مبهورًا الكرات برتقالية اللون التي أثقلت أغصان الشجرة. تركت دفتر الجدّ، وجمعت حصى الأرض وكوّمته في يدك، وأخذت تقذف ثمار البرتقال بها علّها تسقط. طاشت أغلب حصواتك ولم تصب هدفها، والقليل الذي نجح في إصابة الثمرات لم يزد على أن جعلها تتأرجح، فظننت أن عليك استخدام ما هو أكبر من الحصى، انتقيت صخرة بحجم قبضتك وقذفت بها البرتقال فلم تصبه، تناولت صخرة أخرى وألقيتها بكلّ ما تملك من قوة، وبما تسمح به أصابعك المصابة وآلام ضلوعك التي تباغتك كلّما حركت ذراعيك، فإذا بالصخرة تتجاوز البرتقال وتصطدم بدلاً منه بعشّ صغير فوق أحد الأغصان فتؤرجحه. ملأك الجزع، وتحركت في مكانك لا تدري ماذا تفعل، العشّ بدا أنه سيسقط، بينما أطلّ منه فرخ

صغير، وقد ظهر الذعر عليه وهو لا يدري لماذا لم يعد عشّه مستقرًا.

زاد ارتباكك، وأسرعت أسفل الغصن لتلتقطه إن سقط، تمنيت أن يعود من نفسه للاستقرار في مكانه، وتابعت بعينين قلقتين تأرجحه فوق الغصن، وميله على حافته، إلى أن وقع الصغير منه إلى بين يديك المفتوحتين أسفله.

للحظة كدت تلقي به بعيدًا، لم تمسك من قبل كائنًا عدا قطّة شادية، بدا العصفور الصغير على ضآلته دافئًا ينبض بالحياة بشكل أفزعك. تحرك بضعف بين يديك، فخفت أن يطبق على كفّك بمنقاره، إلا أنه بدا وديعًا مسالمًا، يرمقك بفضول بجانب وجهه وعينه الصغيرة، ويبدو مندهشًا أنه انتقل فجأة من عشّه إلى يديك. زقزق وهو يتفحّصك بعينه، وأدهشك أن زقزقته ملأت قلبك بالسرور، فشعرت أنك تحمل كنزًا. نسيت كلّ شيء وأخذت تتأمّله، منقاره الذي لا يكفّ عن فتحه دون إصدار صوت، رأسه الصغير، جفنيه اللذين يتحركان بإرهاق وينغلقان على عينيه، الزغب الذي يغطي جسمه، مخالبه الصغيرة التي انغرست في لحم كفّيك. كم هو صغير وهشّ، هناك شيء فاتن يحيط به، لا تدري ما هو، لكنّك تثق أن له صلة بصغر سنه، لا حجمه. الآن صار مسؤوليتك، أنت من أسقطته من عشّه الآمن برعونتك، لا يمكنك تسلق الشجرة وإعادته، ولا يمكنك تركه. ستنتظر أسفل الشجرة إلى أن يعود أبواه آخر النهار فيأخذانه. كان عليك أن تقضي اليوم في البحث عن شادية، لكنّك ارتبطت الآن بهذا العصفور.

كان يفتح منقاره على اتساعه وهو ينظر إليك مترقبًا، ورأسه تهتزّ

بعصبية، هل أنت جائع؟ لا يبدو خائفًا منك، يتطلع إليك بعينيه الدقيقتين، صغير ولم يعرف قلبه الخوف بعد، ربما لو كلّمه أبواه عن الغيلان لكان خافك الآن.

العصافير تأكل ديدان الأرض، كنت تراها تقف على إفريز النافذة، ترمقك بفضول، ولما تقترب منها تسارع بالرحيل، قرأت كلّ شيء عنها في كتاب الموجودات. تركته على الأرض وغرست أصابعك في التربة أسفل جذور الشجرة وأخذت تبحث. آلمتك الأصابع التي لم تلتئم جروحها بعد، كان من الصعب أن تنبش الأرض وبعض الأظفار مكسورة، لكنّك تجاهلت الألم وأخذت تبحث وتنقّب من مكان لآخر، والعصفور يتابعك منتظرًا، يفتح منقاره على اتساعه كأنّه يحاول محادثتك، يزقزق كأنّه يستحثك. تعثرت أصابعك بجسم لين فرفعته لأعلى، خنفساء ضئيلة لا تكفّ عن الحركة، لا تعرف إن كانت تناسب عصفورك أم سيرفضها. قربتها منه، فرفع رأسه لأعلى وفتح منقاره على اتساعه كأنّه سيبلع العالم، أضحكك منظره، وألقيت الحشرة إليه، فالتقمها وأخذ يضغطها بمنقاره ويبلعها، ثم رفع رأسه طالبًا المزيد.

أنا لست أمك!

قضيت شطرًا من النهار تتحرك بصعوبة حول الشجرة تنقّب عن الحشرات. في أثناء تقليبك للتربة وجدت الدودة التي كنت تبحث عنها، لم تكن طويلة، حجمها بمقدار عقلتين من أصابعك، بيضاء تخلو من الملامح ولا تكفّ عن التلوّي بين إصبعيك. راقبتها قليلاً،

أعجبتك ليونتها وانسيابية حركتها، ففكّرت أن تعيدها إلى الأرض، إلا أن نظرة إلى الفرخ المنتظر، الذي لا يكفّ عن فتح منقاره على اتساعه وهو يرمقك مستجديًا، جعلتك تدفعها إليه. كان شرهًا، لا يكفّ عن طلب المزيد، فهتفت به بحزم أنه يكفيه ما أكل.

انتبهت إلى أنك حدّثته بصوت مرتفع، وأدركت سخف ما فعلت، فسكتَّ.

وهو يبلع ما تُلقمه إياه؛ شعرت بجوعك يذوي ويتراجع، رغم أنك لم تذق الزاد منذ الأمس. رفعته بين كفّيك وقرّبته من وجهك، حاولت أن تُصفّر مثله، فلم يخرج من بين شفتيك إلا هواء وبعض الرذاذ، فأخذت تضحك، وردّ على ضحكك بزقزقة متواصلة. داعبت رقبته الصغيرة بإصبعك، فحاول أن ينقرك. أبعدت يدك بسرعة، ثم لم تلبث أن قربت أحد الأظفار السليمة من منقاره، وتلقيت عليه كلّ نقراته. بعد فترة وجدت عينيه ترتخيان وأراح رأسه على عنقه، فأصابك الجزع وخشيت أن تكون الخنفساء قد ضرّته. هززته بأصابعك، فانتبه ورفع رأسه إليك متسائلاً، فابتسمت له، وتركته ينام.

جاءك خاطر أنك الآن تعتني بالصغير تمامًا كما اعتنى بك الجدّ بعد استيقاظك، فوجمت. وضعته في حجرك، وأخذت تتأمّل الأشجار حولك، منذ الصباح لم ترَ غير طيور وحيوانات صغيرة، والليل يقترب، والخوف بداخلك يتحرك من جديد.

وقع نظرك على دفتر الجدّ بجوارك، فرفعته إليك وأخذت تُقلّب فيه.

(٤)

«أخنتك يا سيّدنا أم خنت نفسي؟

ما الذي أصاب العالم! لماذا صار ذكرك بعيدًا، كأنّ أحدًا لم يسمع عن المُعْتِق العظيم أو يحفظ وصاياه؟ وكأنّي آخر البشر العارفين به، أتقادم العهد بك، أم إن هذا هو زمن السواعد الكذبة؟!

ربما كانوا على صواب، الناس لا يمكن سوسهم إلا بخيانة الوصايا وتبديلها، الناس لا يستحقّون أن يتطهروا بالوصايا، يجب أن يظلّوا هكذا، كالبهائم، وجودهم كعدمهم، عالة على العالم.

أيجب أن يموتوا جميعًا لتأتي بدلاً منهم ذرّية طاهرة تُبجّل الوصايا وتُنزلها، وتُنزل حاملها، ما يستحق؟!

خنتك يا سيّدنا لأني نسيتك، عندما كتبت منذ بضع سنوات قصتك

هنا، كنت أحاول التذكّر لأني نسيت، لم أتعمد ذلك، تظاهرت فقط أني نسيت لأتلاءم مع قريتي الجديدة، وكنت أعرف أن جزءًا بداخلي سيظلّ يتذكّر كلّ ما مضى، غير أن ابني عندما كبر أمام عينيّ، وصار بإمكاني أن أحدّثه عن الوصايا؛ فوجئت بنفسي قد نسيت، أنا الذي مضت عليّ سنون طويلة دون أن أجلس إلى الناس أكلّمهم عنك وأذكر لهم وصاياك كما أعرفها.

منذ طردني أهل قريتنا وأنا خائف، فضّلت العيش وتنكّرت لما خُلقت لأجله. عندما وصلت القرية الأخرى، القرية التي سأقيم وأتزوج وأنجب فيها، سألت الناس على استحياء إن كانوا يعرفونك يا سيّدنا، إن كانت وصاياك قد وصلتهم، فنظروا إليّ باستغراب، ولما حاولت أن أخبرهم بقصتك لم يستمعوا لي، فسكتّ ولم أذكرك بعدها. إن كانت قريتنا، التي نشأت وترعرعت بين جنباتها، وعرفتك فيها وصحبتك في رحلتك عبرها؛ طردتني من أرضها، فماذا قد يفعل بي هؤلاء!

لذلك سكتّ عن ذكرك، وحاولت أن أغرس جذوري في التربة الجديدة.

عطّار القرية قبلني في دكّانه، لكنّ سكّان القرية ظلّوا يتعاملون معي بتحفّظ ويضنّون عليّ بودّهم.

كنت أقضي النهار في عملي، أساعد العطّار في صنع الوصفات، وأتشرب المهنة منه، وفي الليل أقف أمام شطّ النهر أتطلع للجهة المقابلة، أرض الخلاء المظلمة، وكلّي أمل يا سيّدنا أن أراك واقفًا هناك.

كلّ القرى متراصة على طول النهر، في مواجهة أرض الخلاء، وكأنّها قدر يطاردنا مهما اغتربنا.

أحيانًا كنت أتخيّل حياتي السابقة كأنّها حلم، كأنّي لم ألتقكِ يومًا ولم أعرفك، كأنّه ليست هناك وصايا ولا سواعد كذبة خانوا العهد، وإلا فلماذا طالعني أهل هذه القرية بتعجّب عندما ذكرتك لهم؟

صنعة العطارة علمتني الكثير، كنت أرى بعينيّ كيف تمتزج العناصر ببعضها فتصنع عناصر جديدة، فأدرك أن كلّ شيء مصيره التحوّل والتغيّر، لا شيء يبقى على حاله إلا لو تركناه في حاله، أما إذا اختلط بغيره فسيقع التغيير. لماذا لا ينطبق هذا عليّ، وأنا الذي عرفتك، ثم عرفت السواعد الكذبة، وعلّمت الناس قصتك، وغادرت القرية إلى هنا، وتركت تعليم الناس وعملت بالعطارة، لماذا لم أتغيّر رغم كلّ هذه الأخلاط؟! لماذا بقيت كما أنا، أقف على شطّ النهر أرمق بأمل الضفّة الأخرى منتظرًا الإشارة التي لا تأتي، لا يؤنس وحدتي إلا مركب صغير في وسط النهر، صاحبها صيّاد لا يحلو له الصيد إلا في الليل. يعود قرب منتصف الليل، ليجدني كما تركني في بدايته، فيأسف على حالي، ويخبرني أن الأسماك لا تأمن في النهر إلا ليلاً، لهذا يقتنصها بسهولة، وعندما لا يجدني أستمع إليه يحمل غنيمته ويمضي آسفًا.

ذات ليلة لمحت ضوءًا في الشطّ الآخر، فطار صوابي، وعندما بدت لي هيئتك هناك يا سيّدنا؛ لم أدرِ بنفسي إلا وأنا في النهر، أضرب الماء بذراعيّ كالمجنون وأنا أصرخ لألفت انتباهكَ إليّ، أقول لك إن هذا أنا يا سيّدنا، ساعدك المخلص، انتظرني، لا ترحل مرة أخرى،

قاومت الماء الهادر، ولم أبالِ عندما اجتاح جوفي، لا خير في الحياة إن لم ألحقك هذه المرة، فقد لا أراك ثانية. كان الماء يغمرني أحيانًا، وأشعر بضغطه عليّ كيدٍ عملاقة تحاول تغطيسي لأسفل، وألمح سواد القاع وتتشوّش الرؤية أمامي، ثم في الثانية التالية أجدني أرتفع لأعلى فيجتاحني ضوء القمر، قبل أن تجذبني الأعماق من جديد. لم أكفّ عن المقاومة إلا عندما لمحتُ الشطّ الآخر، في إحدى ارتفاعاتي لأعلى، خاليًا كما كان دومًا. أدركت أنك رحلت، وملأني يقين أنني لن أراك ثانية، فاستسلمت وتركت نفسي للماء يتلاعب بي كما يشاء، وأنا أتهيّأ صوتًا غريبًا لا أعرفه يهتف في رأسي: أأنت واثق من اختيارك؟!

أفقت فجأة، لأجدني مستلقيًا على الشطّ، مبعثرًا منهكًا كأنّي عدت من الموت، صدري يؤلمني كلّما أخذت نفسًا، والأشواك تنغرس في ثناياه مع رذاذ الماء الذي بقي في أنفي وفمي. الصيّاد العجوز كان بقربي، يرمقني لاهثًا. رأى التساؤل في عينيّ فأجابني:

«كدتَ تجذبني معكَ عندما حاولت انتشالك، أأنت مجنون؟ كيف تعبر النهر في هذا الوقت؟ ألا تعرف أن دوامات الماء تنشط في الليل؟!»

أصبحنا أصدقاء، وعرض عليّ العمل معه، فرفضت. لم أعد أتحمّل رؤية أرض الخلاء، ولا البقاء قرب النهر، قررت أن أنساك يا سيّدنا، وأعلنت استسلامي.

زوّجني الصيّاد بابنته، كانت فتاة نشيطة، لكنّها مثل كلّ النساء، بلهاء لا يتسع عقلها للأفكار الكبيرة؛ حدّثتها عنك وعن وصاياك في أيامنا الأولى، وأغاظتني نظرة الخواء في عينيها، لم تفهم ما أقول،

فهممت بضربها، ولم يمنعني إلا سكننا مع أبيها في بيته. دنياها تدور حول تنظيف البيت وطبخ الطعام ولا شيء أكثر، كانت كالبهيمة، تمامًا كما وصفتَها يا سيّدنا هي وجنسها. لم أعد أذكر أكان الوصف مما ذكرته لنا، أم وضعته أنا على لسانك لأنك كنت ستقوله بالتأكيد لو رأيت مثيلاتها.

استسلمتُ تمامًا يا سيّدنا، ونسيتك، أو تظاهرت بأني نسيتك، لأنه لم تعد هناك فائدة، هؤلاء القوم لن يؤمنوا بالوصايا ولو بعد ألف عام، تربتهم نجسة، وحياتهم ملعونة. أنجبت صبيًا جميلاً، فعادت نفسي تتفتّح وتُزهر، سأنقل إليه الوصايا ذات يوم، وسنُحيي ذكراك معًا. تنفست الصعداء لأنه لم يأتِ فتاة، كانت ستصبح كأمها وسأعاني منهما الأمرّين، أما ابني فسيكون مثلي، كنت أثق في هذا، وبذلك تصبّرت.

إلا أنه عندما كبر، وأصبح بالإمكان الكلام معه، اكتشفتُ أني لم أعد أذكر كثيرًا من سيرة حياتك يا سيّدنا، أصابني الذعر، وأحضرت هذا الدفتر، وبدأت أدوّن فيه ما أذكره. أجلستُ طفلي أمامي وأخذت أقرأ عليه من الدفتر، أمرته أن يسجّل كلّ ما يسمعه مني، ويأمر أولاده في المستقبل أن يفعلوا المثل. ستبقى سيرتك يا سيّدنا، لن تندثر. سيجيء من ذريتي من يحيي الوصايا من جديد، سيندثر هؤلاء الناس، وسيندثر الساعد الدجّال وحاكم قريتنا، وكلّ من طردوني ولم يقفوا بجواري عندما احتجتهم، كلّ من أخذوا المكان الذي كان يجب أن يكون لي، سيندثرون ولن يبقى إلا ذكري وذكرك. بذلك تصبّرت وأنا أرى ابني يكبر أمام عينيّ، أحكي له كلّ يوم قصتك

والدور الذي لعبته فيها؛ كي لا ينسى، لينجح في ما فشلت فيه.

لكنّي كنت واهمًا يا سيّدنا، الخذلان الذي لم يفارقني منذ تركتني كان مختبئًا يراقبني، ويستعد ليحطّ على حياتي من جديد».

(٥)

أم العصفور كانت ستأتي قرب المغيب، تُفاجأ بغياب صغيرها، فتجزع وتنطلق تزقزق سائلة الشجرة عما أصابه. تدور عدّة دورات في الهواء، قبل أن تكتشف أن الصغير معك، فتنقضّ عليك ناوية أن تجود بنفسها لتحرّر صغيرها، ثم تدرك أنك تعتني به، فترفرف بجناحيها فوقه، وتحمله وتعيده للعشّ.

لكنّ ذلك لم يحدث لأنها انتهت في معدة أفعى تربصت بها قبل عودتها، انتهزتْ فرصة هبوطها لتلتقط حبّة وجدتها على الأرض، فزحفتْ نحوها بنعومة، وانقضّت عليها لتبلعها مرة واحدة. الأم لم تشعر بالألم، كانت الحبّة تملأ ذهنها، ثم اسودّ كلّ شيء بعدها، وانتهت قصتها.

وأنت لم تكن تدري أنك صرت عائل الصغير. تركت دفتر الجدّ عندما داعب النعاس عينيك، والخوف بدأ يتحرك في صدرك، إلا أنك

رمقت الصغير في نومته المستكينة، واستمددت الأمان من انتظام أنفاسه الضئيلة، فأغلقت عينيك وأسلمت نفسك للنوم.

الأشجار كانت تراقبك منذ محاولاتك ارتقاءها، الشجرة الأولى لم تساعدك وطلبت من لحائها أن يزداد نعومة لتتخلّص منك. الأشجار لا تساعد من يدخلون الغابة خائفين، تفضّل أن يعبر هؤلاء سريعًا لتعود الغابة لرونقها، غير أنها كريمة ولا تردّ من يأوي إليها. عندما وجدتك الشجرة الثانية وحيدًا، لا تنوي الرحيل قريبًا، اعتبرتك مسؤوليتها، ولما رأت عنايتك بالصغير أعجبتَها وأشفقتْ عليك. ظلّت تتأمّلك وتتابع انتظام أنفاسك، إلى أن مرّ قطيع من الذئاب على بعد خطوات منها.

الغابة لا تحوي إلا قطيعًا واحدًا مكوّنًا من سبعة عشر ذئبًا، تخرج معًا في الليل لاصطياد فرائسها، يقودها ذئب شاب هو ابن الذئب الذي أرداه الجدّ بالبندقية في تلك الليلة البعيدة. كان سيسرّه كثيرًا أن يلتقيك وينتقم لأبيه منك، فالذئاب تعلم أنه لا يوجد بشر في الغابة سوى أولئك الذين يسكنون الكوخ. كان سيعرفك ويقف أمامك ليعوي مناديًا أباه، يقول له اشهد يا أبتِ انتقامي من ابن البشر، ثم ينقضّ عليك ويبدأ بتمزيق عنقك، بينما رفاقه يقفون على بعد خطوات يتابعون ما يفعل بتبجيل. ما كنت لتشعر بشيء، التعب والإرهاق جعلاك تنام عميقًا، وكانت أحلامك ستستمر على نفس وتيرتها، لكنّك ستراها الآن في الجانب الآخر، ولن تدرك أنك غادرت قبل مضي فترة.

الشجرة لم تسمح بذلك، عندما شعرت باقتراب الذئاب أطلقت

عبيرها ونفخته حولك وغطتك به حتى كتمت رائحتك، فلم تشعر الذئاب بك، ومضت في طريقها.

أما البومة التي أفزعتك بالأمس؛ فسهرت فوق غصن الشجرة تراقبك بعينيها الكبيرتين، وتتسلّى بتبادل المشاعر مع الشجرة. قرب الفجر لمحت أفعى تزحف تجاهك. في الغابة ثلاثة وأربعون أفعى، لذلك كان من الغريب أن تكون هذه الأفعى هي بالذات الأفعى التي التهمت في الصباح أم العصفور الصغير. رفرفت البومة بجناحيها وانقضّت عليها، غرست منقارها في رأسها، فشعرت الأفعى بنفس ما مرت به العصفورة؛ كانت تقترب حثيثة وصورتك مطبوعة في ذهنها، لم تكن تريدك أنت، بل العصفور الصغير النائم فوق صدرك، ولو أنك تقلّبت في نومك وهي تزحف عليك؛ كانت ستفزع وتغرس أنيابها في أيّ جزء تطاله من جسدك. لكنّ ذلك لم يحدث، ما إن غرست البومة منقارها في رأس الأفعى حتى غام كلّ شيء فجأة واسودّ العالم أمام عينيها. رفعتها البومة بمخالب قدميها وطارت بها بعيدًا، قبل أن تعود ثانية لتحطّ فوق غصن الشجرة، كأنّ شيئًا لم يكن.

ستذكر في الصباح التالي، ساخطًا، أن البعوض أزعجك وأقلق نومك، طوال الليل يُغير عليك، تسمع أزيزه الرفيع وأنت بين الصحو والنوم، فترفع يدك بضعف تحاول طرده، فيصرّ ويهبط على جسدك، تشعر بعد قليل بقرصته، وتنتابك رغبة في حكّ المواضع التي نالك منها، وفي الصباح ستجد علامات حمراء تملأ ذراعيك وقدميك، وستتحسّر على أيامك الآمنة في الكوخ. ما لم تعرفه وقتها أن ذلك البعوض لم يكن جائعًا، الأشجار ترجّته أن يُكدّرك طوال الليل. كانت هناك طاقة شرّ

سوداء تعبر الغابة، من تلك التي لا يشعر بها غير الأشجار، وتبحث عمن تمتلئ نفوسهم بالهشاشة والخوف، لتنقضّ عليهم وتهبهم قبسًا من سوادها، فتتنكّد حياتهم طوال الأيام التالية. طاقة الشر تلك اكتشفتك في أثناء عبورها فوق الأشجار، ولما وجدتك منزعجًا تتقلّب في نومك، ظنّتك نلت من أختٍ لها ما تستحق، وتركتك وعبرت بسلام.

لو تذكر، ففي تلك الليلة كنتَ تحلم بشادية، تراها تجلس بجوارك أمام الكوخ، تتأمّلان الجدّ وهو يعمل في الحقل، وتقول لها إن الغيلان ليست موجودة، بينما هي ترمقك بشكّ. وفي أثناء حلمك اللطيف، الذي لم يستغرق إلا لحظة واحدة من لحظات الليل، كانت هناك عشرات الكائنات تسهر عليك وتعتني بك من دون أن تدري، أشجار وطيور وحيوانات وحشرات وجمادات.

كنت تغطّ في نومك، وتسلّل الأمان إلى قلبك من قلب العصفور الصغير، فلم تدرِ أن الغابة استأنست بك طوال الليل، كما استأنستَ بها في النهار.

الغابة لا تفعل هذا مع أيّ أحد، لكنّها وجدت في قلبك شيئًا راق لها.

(٦)

«أدمنت البكاء يا سيّدنا، صرت أغلق عليّ حجرتي وأترك العنان لنفسي، إذا كنت حسن الحظ تطاوعني دموعي فأستريح، وأغلب الأوقات تنحبس بداخلي وتأبى الخروج، فأختنق بها. لا أعرف أهذا جزءٌ من الثمن الذي أدفعه لأني كنت الأقرب إليك، أم هو عقاب لأني لم أبذل جهدي في نقل وصاياك للناس.

أصرخ من القهر، وأسمع صوت امرأتي مضطربة قرب الباب، فأهتف بها ألا تفتحه، أضرب الجدار بقبضتيّ من الغيظ، الشعور بالعجز يقتلني.

انكسر ظهري يا سيّدنا، كسره الولد الذي وضعت عليه أملي، كان المفروض أن ينقل الوصايا للناس، يعاوننى في الوقوف أمام الحاكم وسواعده الكذبة، يبشّر الناس معي بعودتك بوصايا جديدة، كنت

أنتظره أن يكبر، أراقبه وهو ينمو يومًا بعد الآخر، وأحلم بها سأحققه عبره، سأنتصر من خلاله، سيكون كلّ ما لم أستطع أن أكونه، فلما كبر واشتدّ ساعده؛ كسر ظهري.

أنا لست أنت يا سيّدنا، لا أملك حكمتك وصبرك، لو كنتَ مكاني لضحكت من حماقته، رأيتك كثيرًا وأنت تشفق على أعتى أعدائك، وتحوّلهم بابتسامتك المترفقة إلى أصفى أصفيائك، سمعتهم الواحد تلو الآخر يقسم إنه عندما كرهك لم يكره أحدًا مثلك، وعندما أحبّك لم يعد يرى بين الناس سواك. تعلّمت منك كلّ شيء يا سيّدنا، وفشلت في تعلّم هذا.

وما حدث أنني عدت ذات يوم مبكرًا إلى البيت في غير موعدي، وكان الولد مجتمعًا مع بعض رفاقه في باحة البيت الخلفية، سمعت أصواتهم وأنا عند الباب، وأحببت أن أسمع ما يقولون. كنت أخشى على الفتى من رفاقه، ماذا لو أفسدوه أو غيّروا حبّه للوصايا؟ تسلّلت إلى حيث جلسوا يتسامرون، واستمعت.

أكان مصيرنا سيختلف إن لم أستمع إليهم في ذلك النهار، أم إن البلاء كان سيقع في كلّ الأحوال؟

كانوا يضحكون يا سيّدنا، وابني يحكي لهم عني، اختلست النظر إليهم من وراء جدار البيت، فرأيت الفتى واقفًا وسطهم يحدّثهم بجدّية:

«أنا خادم المُعْتِق، كنت أنظّف له أنفه وأمسح مؤخرته، سيّدنا لا وقت لديه لذلك. سيّدنا نسي كيف يقوم بتلك التفاهات، وتركها لي لينشغل بالأهم!»

أصدقاؤه كانوا مستلقين على ظهورهم يرفسون الهواء من شدّة الضحك، لا يقوون حتى على متابعته، بينما هو يقلّد لهجتي في الكلام وطريقة نطقي للحروف، ويقول لهم مكملاً:

«سيّدنا غرق في النهر، وأنا وحدي قلت للناس لا، سيّدنا ذهب ليقضي حاجته، المُعْتِق العظيم يقضي حاجته في أضعاف الوقت الذي تحتاجونه أنتم يا ملاعين!»

شعرت بدموعي تنساب على وجنتيّ، الآن طاوعتني، في الوقت الذي أودّ كتمها فيه، والفتى يكمل متبخترًا بين أصحابه:

«تخيّلوا ماذا فعل الملاعين بعد المُعْتِق؟ قلت لهم أنا خير من ينظّف أنوف الناس، كنت أفعل ذلك مع المُعْتِق، لو كانت جثته هنا لرأيتم أنفه كم هو نظيف، لكنّهم قالوا لي: أنت لا تنظّف الأنف جيّدًا!»

لم أشعر بنفسي يا سيّدنا، ولا أذكر ما فعلته بالضبط، يبدو لي الأمر كالحلم كلّما حاولت تذكّره، ذكرى باهتة لا أثق إن كانت وقعت فعلاً أم لا. أذكر نظرات الرعب في عيونهم، بينما أمسك بالفتى وأطرحه أرضًا وأنا أبكي، أرى قطرات الدم على قبضتيّ، ووجهه الذي غامت ملامحه. المرأة كانت تصرخ، والجيران يمسكون بي، والفتى حمله أصحابه بعيدًا، وأنا أصرخ بهم:

«ليس ابني.. ابن السواعد الكذبة، ليس ابني!»

حتى الساعد الدجّال ما كان ليجرؤ على السخرية من اسمك يا سيّدنا بهذا الشكل، كيف ربّيت ذلك المسخ في كنفي ليستهزئ

بكلّ ما آمنت به؟ أذكر كيف كان يستمع لي صامتًا وأنا أقصّ عليه حكايتك كلّ يوم، أكلّمه عن آمالي وما سنفعله معًا عندما يكبر، لم أكن أدرك حجم الاستخفاف الذي يحمله لي ولما أقول. لا بدّ إنها أمه الملعونة. لم يعد الفتى بعدها إلى البيت، سكن عند واحد من أصحابه وعرفت أنه وجد عملاً ولم يعد بحاجة إليّ.

صرت وحدي، لم يعد هناك من أعتمد عليه سواي، وامتلأت نفسي سخطًا، كم ضيّعت من وقت في انتظار أمل كاذب! شعرت أنه لم يعد لديّ وقت، فماذا أنتظر؟ أخذت أحدّث الناس عنك في كلّ فرصة، أقصّ عليهم حكايتك، أعرض أمامهم وصاياك، وأدعوهم لاتّباعك، فلا يصغون إليّ. اغتنمت عملي في دكّان العطارة لأجبر الناس على سماعي، كنت لا أعطي الزبائن ما يطلبون إلا بعد أن أحدّثهم قليلاً عنك، ومع الوقت بدأ الزبائن يقلّون، ولاحظ العطّار ذلك فنهرني وطلب مني أن أكفّ عن الثرثرة وإلا فلأرحل غير مأسوف عليّ. انفعلت وأنا أخبره أن الكلام عنك يا سيّدنا ليس ثرثرة، وأنني لن أُفضّل شيئًا عليك بعد اليوم، وتركت له الدكّان ومضيت، رغم محاولاته استبقائي.

أصبحت أحرث قطعة الأرض خلف بيتي، وأتعيّش مما أجنيه من زرعها، على قلّته. حماي الصيّاد كان يساعدني في نفقة البيت، لكنّ الأمور ساءت بعد وفاته. ورغم ذلك استمررت أدور في الأسواق أبيع ما لديّ وأحدّث الناس عنك، لم أعد أهتم بمدى استجابتهم لما أقول، عقدت العزم على أن أحدّثهم عنك إلى أن يتّبعوا الوصايا أو أهلك دون ذلك.

إلى أن جاءني ابني ذات يوم يطلب الكلام معي».

(٧)

وأنت جالس في قعر الحفرة، تتأمّل العينين الوديعتين اللتين تطلان عليك من أعلى، اكتشفت أن الخوف ليس غولاً متوحشًا كالذي رأيته من نافذتك قبل أيام، الخوف لا يعدو كونه عجوزًا مسكينًا كجدّك، يصطنع الصخب حوله ليخفي حقيقته، ليجعلك تنسى أنك صنعته وصدّقته، أو خلقه لك الآخرون.

قبل ذلك، عندما استيقظت في النهار، حملت العصفور الصغير بين كفّيك، ووضعت دفتر الجدّ أسفل إبطك، وسرت في الغابة يحميك ضوء الشمس، لا تدري إلى أين تذهب، تتبع حدسك ورغبتك الحارة في العثور على شادية. عزمت على تمشيط الغابة شبرًا شبرًا، فإما تجدها أو تجد ما تبقى منها، فإن لم تعثر على شيء، فبالتأكيد ستجدها وراء الغابة. شادية ستنتظرك، كانت تثق أنك ستتبعها، ستتخلّص من

قيودك وتتبعها، ستنتظرك خارج الغابة لتقول بخيلاء «ألم أقل لك؟ ها أنت ترى البشر الذين حدّثتك عنهم!»

منذ استيقظت أسفل الشجرة وأنت تشعر بتغيّر، لم يعد الخوف بداخلك كما كان في السابق، أم هو ضوء النهار؟ لا، كنت تشعر هذه المرة أنك صرت أقرب للغابة، أنها بيتك، وأن كلّ شيء فيها يرحّب بك؛ زقزقة العصافير وطنين الحشرات وأصوات الحيوانات، كأنّك صرت شيئًا واحدًا معها، فامتلأ قلبك بالأمان.

مضى يوم كامل وأم العصفور لم تعد لتأخذ أمانتها، فتوجّست خيفة، وحملت الصغير معك، الآن صار مسؤوليتك كما صرت أنت مسؤولية الغابة.

سرت والدهشة تملأك مما ترى، تتأمّل اللون الأخضر الذي يحيطك، تراقب الكائنات التي تتحرّك حولك، لم تعد ترى نملاً فقط كما كنت في حجرتك ذات الجدران الأربعة، الآن صار سقفك السماء ولا جدران تحدّ بصرك، تمشي بين الأشجار فتشعر بها تلقي عليك التحيّة، تنظر إليها فتجدها جامدة، بالكاد تهتزّ أغصانها بفعل الرياح، تحركها في أيّ اتجاه شاءت، كأنّها ميتة بلا إرادة، لكنّك تشعر في قلبك أنها موجودة هناك، تراقبك كما تراقبها، ولو سُمح لها لتحدّثت معك، ربما تُجلسك في حجرها لتقصّ عليك حكايات مشوّقة كحكايات الجدّة، بالتأكيد الأشجار لديها قصصها، وستحبّ أن تستمع لها. لوهلة خُيّل لك أنك لو وضعت يدك على سيقانها، لو تحسست لحاءها، ذلك الذي مزّق ساعديك وكسر أظفارك منذ ليلتين، فستجد نبضًا داخلها، أو أنفاسًا

تتحرك صعودًا وهبوطًا. ألقيت عليها التحيّة بقلبك، كما كنت تفعل مع أثاث حجرتك، وشعرت أنها ردّت التحية، كأنّك سمعت صوتها الرخيم يخبرك بلغتها الخاصة أن هذا الصباح جميل، أو كأنّها تطلب مشفقة أن تنتبه لنفسك قبل أن يحلّ الليل، هناك ذئاب في الغابة وقد تتعرض لك. لا، لم تأتِ على ذكر الغيلان، فشعرتَ بالامتنان لها.

استنشقت رائحة الغابة بعمق، وشعرت بها تملأ جسدك وتنتشر داخلك، تشفي كلّ الأحزان والمخاوف التي علقت بك، رائحة هي خليط من رائحة الندى والأعشاب وغدير الماء وتراب الأرض وأوراق الأغصان وخشب الشجر، وشيء آخر لم تدركه، ربما هو روح الغابة. ملأك شعور أن الغابة حيّة تراقبك وتتابعك بعينين لا تراهما، تراك وترمقك بحنان، واستغربت في نفسك أن يصبح هذا شعورك بها، وهي التي كادت تقتلك فَرَقًا منذ ليلتين.

لم تشعر من قبل بطمأنينة كالتي ملأتك في تلك اللحظات، حتى عندما كنت تجلس في عمق الكوخ، مفكّرًا أن الجدّ في الخارج يمنع عنك كلّ سوء، وشادية والجدّة في الداخل تحتضنانك وتعطفان عليك، حتى في تلك اللحظات لم تشعر كما الآن، وأنت في العراء بين أشجار الغابة وتحت السماء البعيدة، لا يوجد ما يحميك أو يضمن أنك ستكون بخير، مع ذلك تُحسّ براحة وسكينة، لا تتذكّر الخوف إلا عندما تُفكّر فيه، كأنّك شُفيت وعاد قلبك ينبض باتزان.

شعرت أن الغابة كلّها ملكك، وأنت أيضًا ملكها، تنتميان لبعضكما، كأنّكما قطعة صلصال واحدة، كالتي تصنع منها الجدّة أوانيها،

إلا أن جزءًا منها تشكّل في صورتك، وبقيّتها تشكّل في صورة أشجار وعصافير وسناجب، الصور مختلفة والصلصال واحد، يحنّ إلى نفسه، ويتعرّف عليها إذا رآها.

تاقت نفسك إلى أن ترفع ذراعيك فتحتضن كلّ شيء، لكنّك خشيت أن تسقط هيبتك من عيني العصفور الصغير، ويظنك إنسانًا أحمق.

أنت لا تذكر هذا، ولا تدرك أنك فعلته، لكنّنا الآن نخبرك به؛ في تلك اللحظات أنت من دون أن تدري كنت ترقص، تدور حول نفسك وحول الأشجار وأنت تقفز من ساق إلى ساق، ترفع العصفور الصغير لأعلى وتضحك، ترفعه تجاه الشمس، فيغلق عينيه منزعجًا، ويزقزق معترضًا، فتنفجر ضاحكًا وتقربه إلى صدرك، تشعر أنه بزقزقته يشاركك الضحك. لم ترَ أحدًا يرقص من قبل، ولا تعرف هذه الطريقة للتعبير عن فرح النفس، إلا أنك كنت تقلّد الأشجار، وجدتها في تلك اللحظة، فجأة، تتحرّك حولك وتدور وتتقافز بمرح، فامتلأ صدرك بالبهجة وأخذت تُقلّدها وتفعل كما تفعل، كأنّها تمدّ إليك أغصانها نحو الأرض، فتمسك الغصن بكفّك، وتدوران معًا وأنتما تمسكان بأيدي بعضكما، تضحك حتى تدمع عيناك، وتدور حتى تشعر بدوار لذيذ، فتترك الغصن، والعصفور الصغير على كتفك يزقزق كأنّه يسمع معك الموسيقى الخفيّة التي تطلقها الأشجار، ترمق من بين ضحكك ما حولك، فتجد البومة تطير فوقكم كأنّها تبارككم، والغراب واقف فوق غصن شجرة عجوز لم تشارككم الرقص، ويهزّ رأسه كأنّه مستمتع بما تفعلون، وخطوط النمل الطويلة تتراقص

تحتكم، من قال إن النمل يعمل بصمت طوال الوقت؟ النمل لا يكفّ عن الغناء في أثناء العمل، تسمعه بوضوح الآن، يغني أغنية مرحة عن النملة الشجاعة التي تجمع طعامها ولا تخشى العمالقة، هتفت بهم: أنا الذي وضعت لكم العسل، أتذكرونني؟

تفتحت نفسك وامتلأت بالحياة، صرخت وسط كلّ هذا: أنا هنا، أنا معكم، مرحى لي ولكم. وجدت نفسك ترتفع مع الأغصان لأعلى، ثم تُحلّق وحدك، تطير بين عشرات الطيور مختلفة الألوان، تزقزق معها بصوت أجمل بكثير من صوتك الذي اعتدته، تتجاوز قمم الأشجار وتراها من أعلى وهي ترقص وتدور حول بعضها، تقترب من السحاب الأبيض، تجد نفسك في وسطه، كأنّك في بحيرة من القطن، تتجاوزه لأعلى، فترى الغابة بالأسفل كنقطة خضراء يمرّ بها شريان النهر، بحثت بعينيك عن الكوخ فلم تجده، بدا كلّ شيء صغيرًا هيّنًا من تلك المسافة، أنت وحدك مع السماء الشاسعة، شعرت أنك لو حركت ذراعيك فستطير في أيّ اتجاه تشاء، لا شيء يحدّك أو يمنعك، أنت عصفور صغير.

ظللت هكذا إلى أن اقتحم أذنيك صوت أقدام تقترب، تتكسّر تحتها الأغصان الجافة الساقطة على الأرض. عدت فجأة وسط الغابة، وتوقفت الأشجار عن الرقص ورجعت لأماكنها كما كانت. صمت كلّ شيء، كأنّ الغابة كلّها بوغتت بالمقتحم الوقح. أسرعت مع العصفور الصغير تختبئان خلف شجرة ضخمة، أخفاك جذعها، ولبثت تتلصص على البقعة التي سمعت الصوت قادمًا منها. مرت دقيقة، ثم انزاحت غصون شجرة صغيرة ليظهر من ورائها الجدّ حاملاً بندقيته.

شلّتك المفاجأة، وكتمت أنفاسك محاذرًا أن ينتبه لك. كان يسير ببطء وحذر وهو يتلفت حوله بانتباه شاهرًا البندقية، لابدّ أنه يبحث عنك. لو ظهر بالأمس لبكيت وأنت تُقبّل يديه وتتوسّل إليه أن يسامحك ويعيدك إلى الكوخ، غير أنك الآن صرت مختلفًا. ظللت مختبئًا وأنت تتمنى ألا يكون قد لاحظك، وخُيّل لك أن الأشجار التي تحيط بك تقترب من بعضها، وتفرد غصونها قربك، فتخفيك. أطلّيْت على مكان الجدّ بحذر، فوجدته قد أولاك ظهره وسار في طريق آخر مبتعدًا، فتنفست براحة.

أسرعت وأنت تحمل العصفور الصغير في الاتجاه الآخر، لا يجب أن يجدك الجدّ، لا تريد العودة، لو عثرتَ على شادية فستأخذها لتعيشا بعيدًا، تغادران الغابة وتبنيان كوخًا جديدًا، أو تبقيان فيها وتعيشان فوق الأشجار. ستتعلّم كيف تتسلقها، وستبني بيتًا كبيرًا بين أغصانها، أيّ شيء إلا العودة إلى الكوخ.

ستصل إلى أبعد مكان في الغابة، أبعد مكان عن الجدّ، ركضت بشكل أخرق، وأنت تحمل الصغير بين كفّيك أمام صدرك، وتحشر دفتر الجدّ أسفل إبطك، ولا تنظر للأرض تحتك، فلم ترَ الفم الأسود المفتوح أمامك.

فجأة شعرت بفراغ أسفل قدميك، واختفت الغابة عن ناظريك، وأنت تهوي في أعماق الحفرة.

(٨)

«الولد لم أره لخمس سنوات، أخباره كانت تصلني، عرفت أنه تزوج وأنجب، صارت لي حفيدة لم أرها، ولم أسع يومًا لرؤيتها، ما حاجتي بحفيدة؟ إذا كان الولد تطبّع بطبع أمه، طبع السواعد الكذبة، فإلام ستصير الحفيدة؟

أمه كانت تتغيب عن البيت أحيانًا، فأعرف أنها ذهبت تزوره، ولا أمنعها، فليحترقا معًا. ظهري انكسر، والجرح في داخلي لن يندمل، ولديّ مهمة لأؤديها، يجب أن يعرف الناس عنك يا سيّدنا، لن يقال إني أقمت سنين في تلك القرية ولم يعرف الناس سيرتك، فلأكن ملعونًا حينها!

بلغ غضبي منتهاه عندما فوجئت بالولد يأتيني ذات نهار. كنت أعمل في حقلي الصغير عندما سمعته يتنحنح خلفي. عرفت الصوت،

وخفق قلبي، فأنكرته، والتفتُّ إلى الولد حاشدًا غضبي في وجهي. تغيّر كثيرًا، ملامح الرجولة انطبعت في وجهه.

اقترب مني وسألني مرتبكًا:

«كيف حالك يا والدي؟»

فرددت عليه بقسوة:

«ماذا تريد؟!»

بدا متردّدًا لا يدري من أين يبدأ، عرفت أنه سيحاول استعادة ودّي، سيعتذر عما بدر منه منذ سنوات، ويدعوني لرؤية حفيدتي، فتحفّزت للرفض. ما فعله لا يُغتفر، وخيانته لا تُنسى. ربما تصفو نفسي تجاهه إن جاءني كلّ يوم يترجاني ويستسمحني ويُظهر التبجيل والاحترام لك يا سيّدنا، عندها ربما أرضى عنه، ومع الأيام قد أبتسم في وجهه وأقبل أن أُعيده لمكانته كابني.

إلا أنه فاجأني عندما أجابني بحرج:

«بصراحة يا والدي.. الآن أصبحت أبًا ومسؤولاً عن أسرة، صار لي وضعي بين الناس وأمام أهل زوجتي. وأنت تُحرجني مع الجميع بما تفعله!»

تركته وعدت لحقلي، وأنا أسأله بلا اكتراث:

«وما الذي أفعله؟»

أجابني متردّدًا:

«لا تكفّ عن ترديد حكاية المُعْتِق. أرجوك اسمعني للنهاية قبل أن تغضب! أُدرك الآن مدى أهمية تلك الحكاية لك، وأعتذر عن رعونتي في تناولها مع أصحابي. كنت صغيرًا وقتها، والصغير لا يحاسب كما يحاسب الكبار».

ولما وجدني لا أردّ عليه، أكمل:

«يمكنك أن تحبّ المُعْتِق كما تشاء، أنا لست واثقًا إن كان وُجد ذات يوم أم لا، إلا أن ذلك لا يهم، المهم أنك تعتقد ذلك وتُصدّقه. لكن هلا جعلت الأمر بينك وبين نفسك؟ ما الحاجة إلى إخبار الناس به في كلّ مكان؟ الناس لا يهتمّون بما تقول ولا يصدّقونه، فلماذا تُحرج نفسك وتُحرجني معهم؟!»

صمتي شجعه على الاسترسال، قال إنه يحلم دومًا أن يكون ذا مكانة وحيثية بين أهل القرية، يتمنى أن يعاملوه كواحد منهم وأن تزداد منزلته بينهم، لكن كيف السبيل إلى ذلك وأبوه غريب لا يعرفون من أين أتى؟ قال إنه يعمل جاهدًا لينسى الناس أننا لا ننتمي إلى قريتهم، غير أن محاولاته تذهب هباءً لأني أبدو للناس مجنونًا يحاول طوال الوقت إقناعهم بأشياء غير موجودة، أو تبدو لهم غير موجودة.

ظللت أستمع له صابرًا، إلا أنني عند لحظة معينة لم أُطق المزيد، فحملت حفنة من تراب الأرض بيدي، وقذفته بها ليصمت. ابتعد بسرعة، ولم أكفّ عن قذفه بكلّ ما تطاله يدي وأنا أصرخ به:

«إياك أن تعود إلى هنا يا ابن الملاعين، أنا ألعنك وألعن ذريتك إلى أبد الآبدين!»

ذلك اليوم كان نقطة التحوّل. ذهبت إلى السوق في اليوم التالي ووقفت بين الناس وهتفت بهم:

«أنا المُعْتِق الجديد!»

استغربت صوتي، النبرة التي خرجت مني لم تكن لي، شعرت أن شخصًا غيري يتحدّث. وعندما وصفت نفسي بالمُعْتِق سرت رجفة في جسدي، خشيت أن تنشق الأرض فتبلعني أو تسقط السماء فوق رأسي، لكن لم يكن لديّ ما أخسره، إن كنتَ يا سيّدنا لن تعود إلينا، وسيظلّ الساعد الدجّال فوق كرسيه هناك في قريتنا، فلأكن أنا المُعْتِق الجديد هنا، امتدادك، لا أحد أقدر مني على استعادة سيرتك بين الناس، وبعثك في نفوسهم. سيتبعني أهل هذه القرية شاءوا أم أبوا، ثم آخذهم وننقضّ على قريتنا، فأضع حاكمها والساعد الكذّاب في الأغلال، وأعيد الوصايا كما كانت، كما أفهمها وأراها.

توقّعت أن ينصت لي الناس، أو يتجاهلونني، أو ينظرون إليّ باستغراب وتعجّب كعادتهم، لكنّي لم أتخيّل أنهم سينفجرون ضاحكين وهم يسمعون كلامي. بعضهم رمقني مشفقًا وهزّ رأسه، ثم عاد لما كان يفعله.

أكملت بانفعال:

«سكّان أرض الخلاء جعلوني المُعْتِق، جاءوني بالأمس وجلسوا معي!»

لمحتُ في أعينهم التحفّز للسخرية، فأسرعت أقول محذّرًا:

«اسمعوا ما أقول لكم، لا تعصوني، لا تسخروا مني، لا قبل لكم

بسكّان أرض الخلاء، موتاكم يرحلون إلى هناك، اسألوا موتاكم عنهم!»

ارتفعت من بينهم همهمات ضاحكة، وسمعت أكثر من صوت يردّد هازئًا: «نسأل موتانا؟ وأين نلقاهم؟!»

لم يلقوا بالاً لكلامي، فعدت آخر النهار مخذولاً.

لم أيأس، في اليوم التالي بدأت أخوّفهم؛ إن لم يكن هناك سبيل للخير، ولإقامة الوصايا، غير الخوف، إذن فليعمّ الخوف الأرض.

قلت لهم محذّرًا:

«إياكم والشرب من ماء البئر، الجنون يقبع هناك، من يشرب من ماء البئر سيصيبه الجنون، اسمعوا كلامي، فأنا المُعْتِق الجديد».

كان هذا أول ما تبادر لذهني، لا شيء يفعلونه بشكل يومي، ويمكن الاستغناء عنه، إلا أخذ الماء من بئر القرية الكبيرة. إن زرعت بداخلهم بذرة الخوف من ماء البئر، فسيتحوّلون لماء النهر، وستكون هذه المرة الأولى التي يطيعونني فيها، هم أنفسهم سيدركون أنهم خضعوا لي، وسيصبح لديهم الاستعداد لسماع المزيد وأخذ ما أقول على محمل الجدّ.

إلا أنهم استهزأوا بي، ونالوا مني بكلماتهم طوال اليوم: «تقصد أن من يشرب من البئر سيصير مثلك؟»، «لا تشرب منه إذن، فربما تنصلح حالك!»، وأصبحوا يتعمّدون شرب الماء أمامي وهم يضحكون.

اجتاحني غضب عارم، وودت لو أعاقبهم، أمسكهم بقبضتيّ

وأريهم الويلات حتى يتوسّلوا لي ويدركوا خطأهم، منعت السقّائين من الاقتراب من بيتي، وقلت لزوجتي إننا لن نشرب بعد الآن إلا من ماء النهر.

جلست بعدها أكتب في دفتري كلّ ما وقع، لأني في الغد سأنهي هذه الحكاية، سأجعل أهل هذه القرية يدركون مغبّة عدم طاعتي.

غدًا سأُعيد الهيبة لاسمك يا سيّدنا، أو أموت دونه».

(٩)

الحفرة لم تكن عميقة، ربما في طول قامتين مثل قامتك، أو أكثر قليلاً. كان من الصعب عليك أن تطال حافتها وأنت سليم، فكيف وكاحلك قد التوى من السقطة. جلست في قاعها متألمًا، وضعت الدفتر والصغير بجوارك، ومددت ساقك المصابة أمامك، وقد لاحظت أن الحفرة واسعة، يمكنك أن تخطو عبرها وتتمشى لثلاثة أمتار، كما قدّرت.

لحسن الحظ تلقيت صدمة الاصطدام كاملة، ولم يصب الصغير بسوء، أخذ يتحرك بجوارك ويزقزق، بينما تحاول الوقوف على ساقيك بلا جدوى، في كلّ مرة يندفع ألم حارق في قدمك المصابة، فتعود لجلستك المستسلمة. ظننت أنك لو استرحت إلى الصباح فستتحسن قدمك، ويمكنك عندها مغادرة الحفرة، لكنّك كنت مخطئًا في تقديرك.

لم يكن يبدو من الحفرة إلا السماء وسحبها، ومن آن لآخر يعبر

طائر فوقك. ضوء الشمس كان يبدّد كثيرًا من العتمة التي أحاطتك، لكن عندما أتى الليل لم تعد ترى إلا ما اعتادته عيناك وسط الظلام. ضوء القمر كان يتسلّل فيضيء جانبًا من الحفرة، ثم يغيب للحظات بفعل السحب العابرة، بينما أنت تتبعه أينما ذهب، وتنتظر عودته، وأنت تمسك بدفتر الجدّ الذي كان تسليتك الوحيدة طوال تلك الليلة.

كنت تقرأ مرتبكًا، وحياة الجدّ تتكشّف أمامك، تتمنى لو كان كلّ هذا من صنع خياله، لا يمكنك تصوّره ضعيفًا يحاول العثور لنفسه على مكان، ولا أحد يصدّقه. الولد الذي يتحدّث عنه، الابن العاق الذي خذله، هل هو أبوك؟ لم يذكر الجدّ وجود أبناء آخرين، فأين أم شادية؟ هل أغفل الجدّ ذكرها، أم إنك.. أم إنك وشادية أخوان؟

أخذت تقرأ ببطء، تخشى أن يتكشف لك ما تخشاه، حياتك كلّها تعتمد على السطور التي تميّزها بصعوبة في قعر الحفرة، تقرأ سطرًا ثم تتوقف دقائق مفكّرًا، تتمنى لو لم تأخذ الدفتر معك، لعلك لا تلتقي الجدّ ولا شادية ثانية، فتظلّ تحتفظ لهما بنفس الذكرى التي كانت دومًا في ذهنك. أما الآن، فكلّ صفحة قد تُقوّض سلام روحك. أهذا ما أرادته الغابة؟ أن تسقط في تلك الحفرة مع الدفتر، فلا تجد مفرًا من مواجهة نفسك؟ بالأعلى كنت تتركه في أيّ مكان، وتتأمّل ما حولك، تلعب مع الصغير، تبحث عن الطعام، والآن لا شيء تفعله طوال الليل غير الصراع مع نفسك لتقرأ أو تتوقّف.

لمحت نملة على الأرض، ومددت إصبعك إليها، إلا أنها تجاهلته واستمرت في طريقها، فأخذت تبحث بعينيك عن مزيد من النمل.

الصغير استمرّ يزقزق، لا بدّ إنه جائع، بحثت حولك في الحفرة عن أيّ شيء تطعمه إياه ولم تجد، فرمقته مشفقًا وربّت على ظهره. عندما حلّ الليل استسلم للنوم ببطن خاوية، أما أنت فتحاملت على نفسك، يكفيك ألم قدمك التي تورّمت، وأصابعك التي لم تلتئم جروحها، وعظامك التي لم تنسَ بعد محاولات تسلّق الشجرة الفاشلة؛ فلتتجاهل الآن آلام معدتك التي لم تذق الزاد منذ فررت من الكوخ.

كلّ شيء كان ساكنًا في الغابة، ورغم ذلك شعرت بشيء ما أعلى الحفرة، فرفعت عينيك عن دفتر الجدّ، وعندها توارى الشيء الذي كان يطلّ عليك، نفس الشيء الذي تبعك طوال اليومين الماضيين، ما الذي يريده الآن؟

ظللت تتطلع لأعلى الحفرة متحفّزًا، أنت الآن فريسة سهلة له. عاد يرنو إليك بحذر، فظهر وجهه واكتشفت أنه قرد، مجرّد قرد، الغول القديم الذي خفته أول مرة.

في البداية بدا خائفًا، يطلّ عليك بعينيه، يرمقك بانتباه مخفيًا بقية وجهه، كأنّه يظنك لن تراه هكذا. لوّحت له بيدك، فبوغت وابتعد سريعًا. استمرّيت تتطلع إلى المكان الذي اختفى فيه، لكنّه لم يظهر لدقائق تالية، فعدت للدفتر.

هناك أماكن عديدة شطبها الجدّ كأنّه تراجع عنها، بدا مضطربًا في تلك الفترة، السطور المشطوبة بها الكثير من التعديلات والإضافات، حاولت أن تدقق لتقرأ ما شطبه، ولم تستطع إلا اقتناص بعض الكلمات

شبه الواضحة، أغلبها لعنات وشتائم يصف بها أشخاصًا بعينهم أساءوا إليه في تلك القرية، ويبدو أنه فيما بعد عاد وندم على ذلك، لماذا؟ ما الذي فعله الجدّ وجعله يشعر بالذنب تجاه من آذوه؟ تودّ أن تقلب الصفحات سريعًا لترى ما انتهت إليه الأمور، وتفتقد الشجاعة لذلك.

رفعت رأسك، فوجدت القرد قد عاد يتطلع إليك بنفس الطريقة الأولى، ولما انتبه إلى أنك اكتشفته، ابتعد سريعًا. أعجبتك اللعبة، وأخذت تلعبها معه طوال الوقت، تحزر متى يظهر، تنظر إليه فجأة فيختفي بسرعة، ثم يعود بعد دقائق، وهكذا.

اطمأن لك فظهر بجسده كلّه في أعلى الحفرة، وأخذ يقفز حولها وهو ينظر إليك، ويصدر أصواتًا مضحكة، كأنّه يخبرك أنه لم يعد يخشاك. ناديته ضاحكًا فتوقّف وأخذ يرمقك باهتمام كأنّه يفهم ما تقول، ثم فوجئت به يتدلى بجسده داخل الحفرة ثم يقفز ليصير أمامك. للحظة أصابك الرعب، ولما أخذ يتطلع إليك كأنّه يستكشفك، من دون أن تصدر عنه حركة حادة أو مقلقة، هدأت نفسك. تشجّعت ومددت له كفّك مصافحًا، فلم يفهم الأمر، اقترب وأخذ يتحسّس ذراعك كأنّه يتفحصها، ثم اقترب من وجهك وأخذ يتأمّلك عن قرب. بدت ملامحه واضحة رغم الظلمة، لم يكن كبيرًا، بالكاد يصل إلى بطنك وأنت واقف، كأنّه طفل صغير. هناك اصفرار في عينيه، إلا أنهما صافيتان، فيهما تردّد وقلق. شعرت أنه مثلك، فمددت أصابعك نحوه، لكنّه أجفل وقفز للوراء، وفي لحظة واحدة، وفي حركتين اثنتين، تسلق جدار الحفرة وعاد ليطلّ عليك من أعلى.

تنحنحت وقلت له مطمئنًا:

«لا تخش شيئًا، لن أؤذيك. أنا مثلك».

دقائق ووجدته يتدلى من جديد داخل الحفرة ويقفز ليعود أمامك. تمنيت حينها لو تمتلك شيئًا من رشاقته، فتخرج من محنتك في عدّة قفزات.

مددت يدك إليه بحذر، فتلقّفها هذه المرة وهزّها بيديه كأنّه يحاول شدّك لتتبعه، فقلت له محبطًا:

«كاحلي التوى، لا يمكنني النهوض ولا الحركة!»

رمقك غير فاهم، ثم انتبه إلى الصغير النائم بجوارك، فأخذ يتطلع إليه وهو يصدر أصواتًا مختلطة من فمه، كأنّه يحاول الكلام ولا يستطيع. خفت على الصغير منه، أن يحاول إمساكه أو تفحّصه فيؤذيه ولو عن غير قصد، لكنّه لم يفعل، فابتسمت له:

«هذا الصغير صديقي، مثلك».

فأخذ يتحرّك في الحفرة وهو يضرب صدره بقبضتيه ولا يكفّ عن إصدار الأصوات، يعتمد على ذراعيه الطويلتين، فيستند عليهما ثم يقفز من مكان لآخر. لا تدري إن كان يفهمك أم لا، إلا أنك أدركت أن هذا القرد الودود هو وسيلة اتصالك الوحيدة بكلّ ما هو خارج الحفرة، فأخذت تشير إلى فمك ثم إليه وأنت تردّد:

«جائع، أنا جائع، أريد طعامًا. أيمكنك أن تحضر لي طعامًا؟»

لم يبدُ أنه فهمك، ولم يلبث أن قفز فجأة متعلقًا بجدار الحفرة، وتسلقها لأعلى، وغاب قليلاً، ثم عاد وألقى بجوارك بغصن شجرة

طويل يابس، وهو لا يكفّ عن الحركة وإصدار الأصوات. نظرت للغصن بإحباط وقلت له:

«لا أريد هذا، أريد شيئًا آكله، طعام، أكل!»

وأخذت تشير له بيديك إلى معدتك، وتتظاهر بأن في قبضتك شيئًا تقضم منه، وتصدر من فمك أصواتًا تشبه المضغ. لبثت طويلاً هكذا، وهو يتابعك بانتباه، ثم يغادر الحفرة ويغيب قليلاً، ويعود وليس معه شيء، إلى أن يئست وكففت عن المحاولة.

القرود ليست ذكية كما قرأت في كتاب الموجودات!

حاولت النهوض من جديد فلم تستطع، ثم انتبهت إلى غصن الشجرة بجوارك، رفعته واعتمدت عليه لتنهض، لا تدري أقصد القرد ذلك أم لا، لكنّه أرسل لك عكّازًا يمكنك الاعتماد عليه. تحسست جدار الحفرة، هناك نتوءات وصخور تملأه، لكن لا يمكنك استخدامها وأنت تعتمد على قدم واحدة، تذكّرت ليلة تسلق الشجرة، فاستقرّ بداخلك أن الأمر صعب، حتى ولو لم يلتوِ كاحلك.

فجأة ارتطم شيء بوجهك، وسقط أرضًا، وظهر القرد بأعلى وهو يصيح. رمقت الشيء الذي قذفك به، وامتلأت نفسك بالفرحة. لم تكن قد رأيت تلك الثمرة من قبل، وبعد شهور من تلك اللحظة ستعرف أنها الجوافة. وضعتها على فمك وقضمت باشتياق، ارتعاشة نشوة عبرت جسدك، وشعرت بطعم الثمرة الحلو يملأ فمك ويسري في خلاياك. قلبها كان يحوي بذورًا صغيرة فاجأت أسنانك، أنت تعرف أن العصافير تأكل الحبوب، لذلك أخذت تستخرج البذور الصغيرة من

جوف الثمرة وتجمعها في حجرك. لم يكن الفجر قد اقترب، ورغم ذلك هززت الصغير، فتململ بجوارك، فتحت له منقاره الصغير ووضعت بذرة بداخله، فالتقمها بانفعال وبلعها، ثم فتح منقاره على اتساعه طالبًا المزيد. أخذت تضع له البذور واحدة تلو الأخرى وانفعال جارف يغمرك، أنت جائع جدًا، سامحني يا صغيري. رمقت أعلى الحفرة بامتنان، ولم تجد القرد.

وقبل أن تفرغ من إطعام الصغير، ألقاك القرد بثمرتين أخريين، فهتفت به:

«أشكرك يا صاحبي، سامحني لأني لم أفهمك كما فهمتني!»

(١٠)

«أجلس في مكاني المختار بالكوخ الجديد. المرأة تُنظِّف المكان، والصغيرة تلعب لاهية أمام الباب، لا تدري حقيقة ما حدث.

أكتب لأسجّل لحظاتي الأخيرة في تلك القرية البائسة، أكتب لأذكّر نفسي أني دنّست اسمك للأبد يا سيّدنا، ولم أعد جديرًا به.

منذ يومين نويت أن أنتصر لنفسي، إن لم يصدّقني الناس فعلى أنفسهم جنوا. زرت دكّان العطّار، مكان عملي القديم، وابتعت من هناك كلّ ما أحتاج إليه. ما تعلمته هناك لم يضع هباءً، كنت أعرف أن بإمكاني صنع الخلطة التي أريد. مضيت فجرًا إلى البئر وأنا أحمل الكيس الذي يحوي المسحوق الأبيض، مسحوق الجنون. سيدفع كلّ من يشرب من البئر ثمن عدم تصديقه لي.

أفرغته في جوف البئر، وعدت لأجلس أمام باب بيتي، لم أستطع

النوم حتى الصباح التالي. كنت أنتظر مجيئهم إليّ مهرولين، خاضعين. سيسألونني أولاً أن أداوي أحبابهم من الجنون الذي أصابهم، ربما يجنّون جميعًا، إلا أن مفعول الوصفة سيزول بعد أيام، وسيعودون كما كانوا.

سيدركون عندها أني صَدَقتُهم، أنهم فقدوا عقولهم بسبب استخفافهم بي، سيسمعون كلّ كلمة أقولها من الآن فصاعدًا، وربما ينصبونني حاكمًا على القرية. سأجمع حينها قواهم وأُغير على قريتنا، أُزيل الحاكم الفاسد، وأجلد الساعد الكذّاب أمام الناس، وأضمّ القرية القديمة إلى الجديدة، لتصيرا قرية واحدة أحكمها بحكمتي. سينظر إليّ الناس مبهورين، أنا الذي طردوني فعدت إليهم ملكًا عليهم، ضنّوا عليّ بأن أكون ساعدك المخلص، فجئتهم وقد صرت المُعْتِق الجديد، فما أعجب تدابير الأيام!

قرب الفجر بدأت أسمع أصوات الصراخ، تلك الأصوات التي ستظلّ تطرق أذنيّ طوال ذلك اليوم، وستبقى تتردّد في ذهني حتى بعد أن ينتهي كلّ شيء. كان الواحد منهم يتمرغ في التراب، والرغاوي البيضاء تملأ فمه، يحاول جذب أنفاسه فلا يستطيع، وأهله حوله يحاولون مساعدته بلا جدوى، ثم ما يلبثون أن يسقطوا بدورهم جواره، ولا يجدون من يساعدهم، إلى أن تخمد أنفاسهم.

أصابني الهلع، ماذا فعلت! أنا لست قاتلاً، كلّ ما أردته أن أثبت لهم أنني صادق، أنني أصلح أن أكون المُعْتِق الجديد، لا الساعد فقط، فعلت ذلك لأجل مصلحتهم، أعرف أن ما لديّ من وصايا وحكمة

سيجلب لهم السعادة، سيجعل حياتهم تنتظم، سيصيرون للمرة الأولى بشرًا لا بهائم لا هدف لها في الحياة. لكنّهم كانوا يتساقطون حولي، صغيرهم وكبيرهم، من دون حتى أن يدركوا أنني السبب في ما أصابهم. حاولت مساعدة جيراني، انحنيت على كلّ واحد منهم أحاول إغاثته، أضع الحبوب ومساحيق العطارة التي أعرفها في فمه، علّها تنفعه، إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيّ، وأنا أبكي قهرًا وعجزًا، لا أصدّق أنني السبب في كلّ هذا الألم، كلّ هذا الموت.

تذكّرت أمرًا، فدار رأسي. أسرعت أركض إلى بيت ولدي الذي أعرف مكانه، وقبل أن أصله أدركت ما وقع، صوت الصراخ وصلني، قبل أن ترى عيناي الفاجعة. جلست وسطهم، وسط زوجته وجيرانه الذين أحاطوا بجسده المرتخي على أرض الطريق، أمام بيته، وأخذت أنتحب وأضرب رأسي بقبضتيّ. ما الذي فعلته بك يا ولدي؟! ما سعيت لهذا، أقسم لك إني ما سعيت لهذا، ضربتك من قبل لأني كنتُ أحبّك، كنتَ كلّ شيء لي، لم أتحمل أن أفقد أملي فيك، فضربتك وطردتك، كنت أتظاهر فقط، جزء بداخلي كان يعرف أنني سأستعيدك عندما أُثبت للجميع أن المُعْتِق موجود والوصايا حق، كنت أعرف أنك ستفخر بي وسأستعيدك عندما ينصّبني أهل القرية حاكمًا عليهم، عندها ستقول للجميع إنك ابني، ستجمع أصحابك القدامى، أولئك الذين كنت تسخر مني أمامهم، وتُحدّثهم بفخر عن أيامك معي، كيف كنت تراني في صغرك، ستحكي لهم عن كلّ أفعالي وأقوالي، تمامًا كما كنت أفعل مع المُعْتِق العظيم، وحينها كنت سأعفو عنك وأضمّك إلى جناحي، وأُعوّضك عن كلّ أيام الحبّ والحنان

التي فقدناها. لماذا لم تنتظرني؟ لماذا لم تستمع لتحذيري وشربت من ماء البئر، لماذا كنت مثل غيرك من الناس؟ لم تأخذني بجدّية يا ولدي، فقتلت نفسك وقتلتني معك.. أم إنني أنا من فعل؟!

وبينما أضمّ جثمانه الحبيب إلى صدري وأبكيه، إذا بزوجته، التي لم أرها قبل ذلك النهار، ترتجف وتسقط بجواره والرغاوي البيضاء تملأ فاها، وطفلة صغيرة في الثانية من عمرها تظهر فجأة وتلقي بنفسها في حضنها، فتغمر الرغاوي وجهها الصغير، عرفتها لأنها كانت تشبهه، فانتزعتها من فوق جثة أمها، واحتضنتها. أنا جدّك يا شادية، أنا من قتل أباك وأمك، قتلت أحبّ الناس إليّ، قتلت كلّ أهل قريتك، نمرّ بجثثهم بينما أعود بك إلى البيت، وأدخل على امرأتي وأنتِ معي، فتراني وتفهم كلّ شيء من النظرة الأولى. سقطتْ على الأرض وأخذت تصرخ وتضع التراب فوق رأسها، وهي تولّول بلا توقّف: «لو أنه أطاعك لبقي، لو أنه أطاعك لبقي!»، وضمّت الصغيرة لصدرها بقوّة وهي لا تكفّ عن النواح، احتضنتهما كلتيهما وبكيت معهما، أنا مجرم يا سيّدنا، ساعدك المخلص صار مجرمًا، ما عاد يستحقّ نطق اسمك أو الإشارة إليك، أنت الذي بقيت بين قومنا تدعوهم بالحسنى، تبتسم في وجوههم وهم يقذفونك بالحجارة ويضعون الأوساخ في طريقك، كان بإمكانك أن تدسّ لهم السمّ في طعامهم، في مائهم، تتخلّص من كلّ من لا يصدّقك، وتُبقي على محبّيك، إلا أنك لم تفعل، صبرت عليهم حتى صاروا جميعهم محبّيك، وأنا لست مثلك، ما أنا إلا مجرم.

خلت القرية من أهلها وغمرها السكون، الجثث تملأ البيوت

وتتوسّد الشوارع، فحملت الصغيرة وزوجتي، وأسرعنا نهرب من قرية الأموات. ركبنا قارب حماي الصيّاد، الذي آل إليّ بعد وفاته، وجدّفت تجاه أرض الخلاء. سألتني زوجتي عن وجهتنا، وهي تضمّ الصغيرة المذعورة إليها، فلم أجبها. نادتني بلقب المُعْتِق، وهي ترمقني بتبجيل، فنهرتها. في منتصف النهر بدأت الدوّامات تحيط بنا، اهتزّ القارب بعنف كأنّه سينقلب، فتذكّرت أقوال الأجداد: لا أحد يصل إلى أرض الخلاء سوى الموتى. صرخت الصغيرة وتمسكت بي المرأة وهي ترمقني راجية، كأنّها تنتظر مني معجزة تنقذنا، لكنّي لم أهتم، فلينقلب القارب لو شاء، إن كان الموتى فقط من يصلون هناك، فلنسترح ونصبح موتى. القارب لم ينقلب، ظلّت الأمواج تتقاذفه بينها كأيدٍ عابثة، فنطير في الهواء من موجة لأخرى، شعرت بالدوار، وتقيّأت الصغيرة في أرضية القارب، وأغمضت المرأة عينيها مستسلمة لمصيرها، وشطّ أرض الخلاء يقترب، هل يخوّفنا النهر لنعود أدراجنا؟ أيُعقل أن نصل أرض الخلاء ونحن أحياء؟ إن وصلنا أحياء فسألتقي سكّانها، مواليد النور، وأطلب أن يمنحوني العفو.

لكنّهم لم يمنحوه لي يا سيّدنا، ضنّوا عليّ بالراحة، أنا المجرم الذي لا يستحق أن يكون ساعدك».

(١١)

لحسن الحظ أن قدمك تحسنت خلال الأيام التالية، لأنك عندما أكملت القراءة في دفتر الجدّ أصبح الأمر فوق تحمّلك، وكان عليك أن تقف وتدور في الحفرة، لم تنتبه إلى بكائك إلا عندما سقطت دمعة فوق صفحة الدفتر واختلطت بالحبر، فطمست بعض الكلمات. ليت الصدمة التي لحقت عقلك تنطمس كتلك الكلمات، ليتك تنسى ما قرأت ولا تذكره ثانية، ليت الجدّ يكون كاذبًا، وكلّ ما قرأته مجرد قصة خيالية اخترعها ليُسلّي أيامه. لم تعد تفهم شيئًا، أأنت الآن محاصر في قعر حفرة تقع في أرض الخلاء؟! أكلّ ما مضى كان في أرض الخلاء؟ الكوخ الذي عشت فيه، وحقل الجدّ، والغابة، والصغير، والقرد، كلّهم في أرض الخلاء؟ والجدّ فعل كلّ هذا؟! يداه تحملان دماء مئات الأشخاص؟! كيف لليدين اللتين عطفتا عليك وعلمتاك أن تقترفا ذلك؟!

وإذا كان ابن الجدّ لم ينجب سوى شادية، والجدّ لم يحمل معه سوى الجدّة وشادية، فمن أين أتيت أنت؟ لا يمكن أن يكون الجدّ قد أغفلك. قال إنك حفيده، وإنك نمت ثلاثين عامًا، منذ كنت في الخامسة وحتى الآن، ورفض أن يخبرك بأيّ شيء عن والديك، بينما قالت شادية إنه كاذب، أنت رفيقها، كنتما تلعبان معًّا وتقضيان كلّ الوقت معًا، إلى أن فقدت وعيك قبل أسابيع قليلة، وعندما استيقظت أوهمك الجدّ بقصة النوم لثلاثين عامًا. كلاهما لم يَصدُقك، كلاهما يخفي الحقيقة، من أنت ومن أين أتيت؟!

قلّبت في مذكرات الجدّ، الصفحات تمضي تلو الصفحات دون وجود ذكر لك، هل ظهرت من العدم؟! الجدّ سوّد عشرات الصفحات في تلخيص الكتب التي قرأها طوال السنين الماضية، توقّف عن الحديث إلى المُعْتِق، لم يعد يذكره على لسانه كما ألزم نفسه، أخذ معه أسلحة وكتبًا وبذورًا وبعض الدجاجات، وأصبح يقضي نهاره في الزراعة وليله في القراءة، فهل أنت مجرد وهم لم يوجد من قبل؟!

مضت عدّة أيام والقرد يأتيك من آن لآخر، يلقي إليك بالثمار التي تتقوّت عليها وتطعم الصغير بذورها، ويحاول اللعب معك، فيجدك ذاهلاً لا رغبة لديك في فعل شيء. لم تعد حتى تُفكّر في الخروج من الحفرة، إذا كان جدّك، المُؤدِّب والمُعلّم، الرجل الذي أحببته ودافعت عنه طوال الوقت؛ فعل كلّ ذلك، أزهق بيديه حيوات أهل قرية كاملة، وقضى على ابنه الوحيد، الابن الذي لا تعرف حتى الآن أهو والدك أم لا؛ فما فائدة أيّ شيء؟! لماذا تحاول الخروج من الحفرة، لماذا ترغب في الحياة، وأنت لا تعرف من أنت، وكلّ ما علّمك الجدّ إياه

تلوّث بالدم؟ لماذا تُحاول البحث عن شادية، التي اشتركت مع الجدّ في خداعك وإخفاء حقيقتك؟!

حتى العصفور انتبه إلى غيابك، يناديك بزقزقته فلا تردّ، تكتفي فقط بإطعامه، وأنت ترمق دفتر الجدّ بمرارة، وتنظر له وتقول:

«أيام وينمو ريشك وتستطيع الطيران، وبعدها تعتمد على نفسك».

نعم، سيغادرك العصفور ويحيا، لأنه يستحق الحياة، أما أنت فقد سقطت في قبرك، لم يكن سقوطك هنا عبثًا، ستبقى في هذه الحفرة إلى أن تموت، لم تعد الحياة تستهويك.

وعندما أمطرت السماء في إحدى الليالي، انتبهت وأخذت تتابع القطرات الساقطة من السماء مبهورًا، لم تمطر طوال فترة إقامتك في الكوخ، لذلك وقفت تحت المطر، وقد خفّت آلام قدمك كثيرًا، مستمتعًا بنقرات الماء على وجهك ويديك. الصغير ابتلّ، إلا أنه ظلّ يرفع منقاره لأعلى ويفتحه كعادته على اتساعه، ويبتلع قطرات الماء، فأخذت تُقلّده وقد أدركت أن الحياة ما زالت تحتلّ مساحة بداخلك.

وبينما تقف في وسط الحفرة تتلقّى المطر، إذا بصوت حوافر راكضة يرتفع، فتوجّست خيفة؛ هناك حيوان يركض بسرعة تجاه الحفرة، وقبل أن تستوعب ما حدث، فوجئت بشيء كبير يسقط من أعلى. غزال جميل الشكل، استطعت تمييز قسماته النبيلة رغم ظلام الحفرة، عيناه تنضحان بالذعر، وقرناه الكبيران يلمعان تحت المطر. سقط وقدمه تحته وبان الألم على وجهه، يبدو أنها انكسرت. لم يكن ذلك نهاية المطاف، بعد ثانية واحدة من سقوطه سمعت صوت لهاث تعرفه

جيّدًا، تذكّرت تلك الليلة البعيدة التي أطلق فيها الجدّ بندقيته من نافذة غرفة شادية. كان يركض أيضًا، غالبًا كان يطارد الغزال، ومثله لم يستطع تفادي الحفرة بفعل الأرض الزلقة، ظهر بجسده الرمادي بالأعلى، يحاول التوقّف بينما جسده ينزلق، يحاول بقوائمه التشبّث بحافة الحفرة، لكنّه سقط بجوار الغزال. اجتاحت أنفك رائحة ثقيلة حارقة، عرفت أنها رائحة فرائه، وتراجعت غير مستوعب لما حدث للتوّ. انتصب واقفًا تحت المطر وحدّق فيك بعينيه، لم تصدّق ما ترى، عيناه كانتا تضيئان في الظلام، نقلهما بينك وبين الغزال الراقد على الأرض بينكما، كأنّه يُقيّم الموقف، ثم انتصب ورفع عنقه وأطلق عواءً طويلاً جمّد الدم في عروقك. لا يمكنك الخروج من الحفرة الآن، لا يمكنك أن تغادرها في التوّ واللحظة، والذئب قد ينقضّ عليك إذا جئت بأيّ حركة، والغزال ينقل عينيه المتعبتين بينكما، يحاول أن ينهض فلا يستطيع، فيئن بضعف. سمعت أصواتًا تقترب، ثم أطلّت عليكم رؤوس الذئاب، فأيقنت أنك هالك لا محالة. الذئب الرمادي لما رأى رفاقه أطلق عواءً قصيرًا، فلم يفعلوا شيئًا، مكثوا يتأمّلونه بصمت، وتقدّم من بينهم ذئب رمادي آخر، أطلق عواءً طويلاً، فتجمّعت الذئاب واصطفّت خلفه، ثم لم يلبث أن تراجع ومضى، فتبعه القطيع.

الذئب ظلّ يتطلع إلى المكان الذي اختفى فيه رفاقه، ولما مضت دقيقة دون أن يعودوا، عاد يطلق عواءه، كأنّه ينوح هذه المرة، ثم تراجع وتحفّز جسده، وقفز نحو جدار الحفرة، إلا أن الحافة كانت أبعد من أن يطالها. تراجع من جديد وقفز، تشبّث بمنتصف جدار

الحفرة بمخالبه، ومنه قفز ثانية محاولاً التشبّث بنقطة أعلى، فجاءت قفزته هذه المرة ضعيفة، وسقط من جديد، فوقف في مكانه يلهث بانفعال تحت المطر.

انحنى وأخذ يلعق الماء الذي تجمّع على الأرض، ثم رفع رأسه وأخذ يحدّق فيك بعينيه الصارمتين، فارتجفت، هل سيهاجمك الآن؟ لم تدرِ ما سرّ تماسكك حتى تلك اللحظة، عندما هاجمت الذئاب الكوخ أصابتك نوبة هلع ظللت تعاني منها لأيام، أما في تلك اللحظة، والذئب على بعد أمتار منك، لم تشعر إلا بالخوف والترقّب. أحقًا كانت الحياة لا تفرق معك، أم هو إحساسك بالمسؤولية تجاه الصغير؟ ستفكّر في ذلك في الأيام التالية، إلا أنك في تلك اللحظة التقطت الصغير المبتلّ وضممته إلى صدرك، وشعرت بجسده الضئيل يرتجف بين أصابعك، وأنت لا تُحوّل عينيك عن الذئب في انتظار حركته التالية، وباليد الأخرى حملت غصن الشجرة ورفعته في مواجهته. عليه أن يعرف أنه لن ينالك بسهولة، ستغرس الغصن حتى نهايته في جوفه، قبل أن يستطيع غرس أنيابه في جسدك.

الذئب أخذ يُنقّل بصره بينك والغزال، الذي كان يطلق خوارًا ضعيفًا ويحاول النهوض بلا جدوى؛ كأنّه يقيس خياراته. ثم هجم فجأة على الغزال وأطبق أنيابه على عنقه، فصرختَ وتراجعت حتى التصقت بجدار الحفرة، بينما الغزال ينتفض ويطلق خوارًا أخيرًا.

اختلط المطر بدماء الغزال على الأرض، بينما الذئب يمدّ خطمه الطويل إلى بطن الغزال وينهش ما بداخلها. عندما انتهى بعد دقائق،

رفع رأسه لأعلى وأطلق عواءً طويلاً كأنّه يعلن سطوته، وظلّ يدور في الجزء الضيّق الذي احتلّه من الحفرة، وهو لا يكفّ عن التطلع لأعلى كأنّه ينتظر عودة رفاقه. يتوقف أحيانًا ليلعق الماء المتجمع على الأرض، ثم يعود لحركته الحثيثة. عندما توقّف المطر حاول عدّة مرات أن يصل لحافة الحفرة من جديد، يقفز قفزتين على جدار الحفرة، وقبل القفزة الثالثة يسقط.

لبثت متكوّمًا في ركن الحفرة، تُشهر الغصن بيدك متوترًا، وجثة الغزال في المنتصف تفصل بين مكانك ومكان الذئب، تنتظر أيّ حركة غادرة لتدافع عن نفسك والصغير، وأنت تعلم أنك لن تفعل أكثر من تأخير اللحظة المرتقبة، الذئب لو أرادك فسيعرف كيف يناورك وينقضّ عليك، غير أنه بدا غير مهتم بك. لما تعب من الحركة داخل الحفرة، ولم يظهر رفاقه رغم عوائه المستجدي، أقعى على ساقيه قرب الجدار، وبعد دقائق التفّ حول نفسه وأغمض عينيه.

لم تستطع النوم تلك الليلة، مكثت في مكانك محاولاً كتم أنفاسك حتى لا ينتبه الذئب ويقرر مهاجمتك، حتى الصغير الذي استيقظ في غير أوانه لم يزقزق، وظلّ صامتًا، كأنّه يدرك خطورة الموقف. بعد عدّة ساعات، عندما تأكدت من نوم الذئب، غفوت رغمًا عنك عدّة مرات، وسرعان ما كنت تنتبه فزعًا، متوقّعًا أن ترى عيني الذئب المنيرتين قربك، وأنيابه مشهرة نحو عنقك. تنظر إليه فتجده ما زال نائمًا في مكانه، فتبقى مستيقظًا تراقبه، إلى أن تغفو من جديد.

في الصباح أدركت أن الذئب قرر تركك إلى أن ينتهي من الغزال، ينهض من مكانه ويقترب من الغزال، فيأكل من لحمه ما شاء، ويظلّ

يدور في الحفرة وهو يتطلع لسطحها، وكلّ عدة ساعات يبذل عدّة محاولات للقفز خارجها فيفشل. شعرت به حزينًا، رفاقه تخلّوا عنه، وبالتأكيد يدرك مصيره في هذا المكان، سيستمر يتغذّى على الغزال إلى أن يأتي عليه، ثم يجيء دورك، وبعد ذلك سيظلّ في الحفرة إلى أن يهلك جوعًا وعطشًا، وتقتات الطيور الجارحة على جيفته، ما هي إلا مسألة وقت. لم يحاول التحرّش بك، تجاهلك تمامًا كأنّك غير موجود، ومع الوقت بدأت تعتاد وجوده وتعتاد الروائح المقيتة التي تصاحبه؛ رائحة فرائه الثقيلة، رائحة الفضلات المنبعثة من مكانه، ورائحة دم الغزال وجيفته التي بدأت تنتن.

عدت تقرأ في دفتر الجدّ، وتنتظر القرد الذي خاف في اليوم الأول ولم يأتِ، ثم عاد في اليوم التالي ليلقي إليك بالفاكهة من أعلى، دون أن يخاطر بالنزول. الغريب أنك صرت تفهم عيني الذئب، لمحت اللمعة فيهما عندما يجيء القرد ويلقي إليك بالثمار، كأنّه أدرك أن لديه فريسة أخرى، لا يمكنه الحصول عليها إلا من خلالك. طمأنك ذلك، سيؤخّرك إلى أن تنجح في جذب القرد للنزول، فينقضّ عليه، ثم قد يتركك فترة حتى يطمئن أنك ليس لديك أصدقاء آخرون يمكن أن يمنحوه عمرًا أطول في محبسه، ثم يأتي دورك.

مددت إليه يدك بثمرة جوافة، وأنت مطمئن إلى أنه لن يأتي بحركة مفاجئة. استمرّ يحدّق فيك بنظرته النافذة وزمجر مكشّرًا عن أنيابه، كأنّه يقول توقّف عن ألاعيبك، لن نصبح أبدًا أصدقاء. قذفت الثمرة نحوه، محاذرًا إشعاره أنك تهاجمه، إلا أنه لم يتحرك من مكانه، ولم يحاول حتى استكشاف الثمرة علّها تكون شهية.

عندها أدركت أنك يجب أن تغادر الحفرة في أسرع وقت ممكن.

(١٢)

«اليوم وقع أغرب شيء ممكن وقوعه يا سيّدنا، أكتب ويدي ترتجف من الانفعال.

مضت سنون طويلة ونحن هنا، منعزلون عن كلّ شيء. هل هي عشر سنوات أم خمس عشرة؟ لا أذكر، ولم أعد أحسب بعد السنوات الثلاث الأولى، لكنّ شادية جاءت معنا وعمرها سنتان، والآن هي شابة حسناء.

عندما وصلنا أرض الخلاء، فاجأنا الصمت. بعد الشطّ كانت الغابة تمتدّ إلى حيث لا نعلم. ولجناها، أنا وامرأتي والصغيرة، وشرعنا نسير على غير هدى. كنت آمل أن ألتقي سكّانها، فأضع حملي بين أيديهم ليحكموا عليّ بما يرونه مناسبًا، وأمل صغير يداعب قلبي أن أجدك يا سيّدنا. ظللنا نسير، إلى أن وصلنا قبل مغيب الشمس إلى فسحة تخلو

من الأشجار، وفي وسطها كوخ من الخشب، فارتجف قلبي وأيقنت أني وصلت إلى حيث سألتقي بمن جئت لألتقيهم. طرقت الباب فلم يردّ أحد، دفعته فانزاح معي، وولجت الكوخ فوجدته مظلمًا خاليًا، فأدركت أنه مهجور.

وضعنا متاعنا القليل به، واتخذناه مسكنًا. كنت قد أحضرت معي من القرية الهالكة الكثير من البذور والكتب وبندقية وبعض الدواجن. المرأة نظّفت المكان وأعدّته للسكن، وتلهّت بتربية الدجاج، الذي كنا نحصل منه على البيض، بينما اتخذت أنا من قطعة الأرض الخالية أمام الكوخ حقلاً أزرع فيه بذوري، كما كنت أفعل في القرية الهالكة. خلف الكوخ وجدت بئرًا، كان لدهشتي يحوي ماءً عذبًا، فصرت أحضر حاجتنا من الماء منه. من آن لآخر كنت أتجوّل في الغابة لعلّي ألتقي سكّانها. أثق أنهم هناك، أشعر بوجودهم، بأنهم يراقبونني في صمت، فلماذا لا يكلّمونني؟ لأنني مجرم في نظرهم؟! ألا يعرفون أني أخلص أحبّائك يا سيّدنا؟ ألن يعفوا عني ويظهروا لي فيطمأنوني؟

أحيانًا كنت أتشجّع وأخرج مع بداية النهار فأقطع الغابة حتى أصل إلى النهر، وأمكث واقفًا هناك أتطلع للشطّ الآخر، ألمح أضواء القرى الممتدّة على طول الشطّ، وأتساءل إن كانت القرية الهالكة قد عُمّرت من جديد أم لا، هل أدرك أهل القرى الأخرى ما وقع بها؟

أعود إلى الكوخ وأصبّ غضبي على المرأة، التي صارت تُقدّسني وتتقبّل كلّ ما أقول وأفعل، بعكس شادية. في وجهها ملامح من أبيها، غير أنها كانت مختلفة عنه. لا أدري من أين جاءت بصفاقتها وغرورها، حاولت أن أربّيها على طاعتي، أردت أن أُشكّل شخصيتها

كما أريد، لكنّها كانت تستهزئ بي، لا كما كان يفعل أبوها وراء ظهري، بل أمام وجهي، لا تبالي بغضبي وتهديدي وعقابي.

كثيرًا ما كنت أتطلع إليها من دون أن تشعر، أتسلّل إلى حجرتها بعد أن أتأكد من نومها، فأقف فوق فراشها أتأمّل ملامحها، كم تصبح وديعة مسالمة عندما تكون نائمة، أو عندما لا تتكلّم معي، بينما تنقلب وتتحوّل شيطانة عندما تُحدّثني، أتحاول أن تُعذّبني؟ أتدرك أنني من قتل والديها؟ أكانت تشعر بذلك، وتحاول الانتقام مني؟!

أعلم أنها ستتغيّر بعدما ألتقي مواليد النور، عندما يصطفونني كما فعلوا معك يا سيّدنا، عندها سيمنحونني حكمتهم، فأصير ساحرًا مثلك، أضع يدي على رأسها فتخضع لابتسامتي وتُحبّني.

واليوم يا سيّدنا، وبعد فراغي من حرث الحقل قرب الظهيرة، اشتاقت نفسي لزيارة النهر وتأمّل الشطّ الآخر، فانطلقت حاملاً بندقيتي كعادتي، لأني لم أعد آمَنُ من الذئاب التي تتجوّل في الغابة، وتظهر من حيث لا أدري.

وقرب الشطّ وجدت المفاجأة، لمحت جسدًا مبتلاً منكفئًا على وجهه، فأسرعت إليه، كانت هذه المرة الأولى التي تُلقي فيها مياه النهر بغريق إلى شطّ أرض الخلاء، أول مرة منذ ما يقرب من عشرين عامًا.

ملأني القلق مع رؤية ذلك الغريق، لو كان به رمق الحياة فقد يستيقظ ويعود إلى قومه ليخبرهم أنه وصل إلى أرض الخلاء وعاد منها، وعندها سيأتي أهل القرى إلينا ويقطعون خلوتي الممتدّة ويشاركونني في البحث

عن سكّان المكان. لذلك اقتربت منه وكلّي أمل أن أجده ميتًا، وعندما قلبته على ظهره لأفحصه، تبين لي وجهه، فهويتُ على ركبتيّ مصعوقًا.

كان أنت يا سيّدنا، المُعْتِق العظيم!

(١٣)

في تلك الليلة راودتك أحلام غريبة.

رأيت نفسك تسير في الغابة وحولك مئات الناس، يسيرون معك والأشجار ترمقكم راضية وتحييكم بأغصانها، يتطلعون إليها مذهولين ويقولون لك: الأشجار تحدّثنا، أترى؟!

ورأيت نفسك تلعب مع مجموعة أطفال، يأخذون الكرة الصغيرة من بين قدميك ويمررونها لبعضهم، تُحاول أن تقطع طريقها، فتتعثّر بها وتسقط أرضًا، فيشير الأطفال إليك ويضحكون، وأنت تضحك معهم، بينما الناس يتابعونك باستغراب، وتخرج من بينهم امرأة عجوز تسألك بدهشة: أتلعب مع الأطفال يا سيّدنا؟!

ورأيت نفسك في مجلس فخم، ورجل ضخم يجلس بين يديك

ويبكي، وهو يسألك بلوعة: لن أدعهم يمسونك بعد الآن، لكن أنا.. أيمكنني أن أبدأ من جديد؟! وأنت تربّت على رأسه وتواسيه حتى يهدأ.

ورأيت نفسك تقف بين الناس وتشير إلى النهر: جئتكم من هناك، تعالوا معي، وهم ينظرون إليك غير مصدّقين.

أما الحلم الأخير فآلمك حقًا، وستظلّ ذكراه تطاردك طويلاً، كلّما تذكّرته ينقبض صدرك وتندفع الدموع في عينيك. رأيت شادية تقف بين الأشجار، بشعرها القصير المهوّش وملابسها الممزّقة، والإعياء بادٍ على وجهها، تحتمي بجذع شجرة استندتْ إليه وهي تأخذ أنفاسها بصعوبة، وترمق بفزع الكيان الأسود الذي انتصب أمامها.

حاولت أن تتحرك لتُنجدها إلا أن ساقيك لم تستجيبا. انتبهت لك، فحوّلت وجهها عن غريمها والتفتت إليك، التقت عيناكما فبدا في عينيها تعبير غريب لم تستطع تحديده، كأنّها ترجوك أن تهرب قبل أن ينتبه لوجودك.

الغول لم يمهلكما، رفع يديه المخلبيتين، وقبل أن تدرك ما سيفعله، غرسهما في عنق شادية؛ فصرختَ باسمها، وأنت تهوي على الأرض بعجز. التفت إليك وحدّق فيك بعينيه الحمراوين، وبدا أنه سيتجه إليك، لكنّك هذه المرة لم تخف، ولم تنتظر مجيئه، اندفعت نحوه وأنت تصرخ، قفزت عليه وأسقطته أرضًا، ولم تبالِ بمخالبه التي ما زالت دماء شادية عالقة بها. لمحت صخرة قريبة فرفعتها وهويت بها عدّة مرات على رأسه. سمعته يصرخ، لم يقاوم، بل شعرت به ضعيفًا تحتك، وبدا الصوت مألوفًا، فتوقّفت غير فاهم.

مددت يديك إلى رأس الغول وجذبتها، ليخرج القناع معك، ويبدو تحته رأس الجدّ المحطّم غارقًا في الدماء.

صرخت ووجدت نفسك تهبّ فزعًا من رقدتك، تتأمّل ما حولك غير مصدّق، وأخذت تبحث وسط دموعك عن دفتر الجدّ، ستُقلّب صفحاته حتى تصل للجزء الذي يتكلّم عنك، لا يمكن أن يكون أغفل ذكرك.

صرختك وحركتك أيقظت الذئب، فرفع رأسه يرمقك باستغراب، وفتح فمه كأنّه سيعوي، ثم لم يلبث أن تراجع وعاد إلى النوم.

(١٤)

«عندما رأيتك يا سيّدنا، بقيت في مكاني جامدًا لا أقوى على الحركة، انتظرت تلك اللحظة لما يزيد على أربعين سنة، وها قد جاءت، فمالِ أفكاري شُلّت وجسدي لا يطاوعني؟

مصدر ذهولي أنك كنت مختلفًا عن آخر مرة رأيتك فيها، لم تكن ذلك الرجل الحكيم الذي غيّرنا جميعًا قبل أن يختفي، بل كنتَ شابًا، تمامًا كما كنت عندما اختفيت في المرة الأولى، قبل أن تعود إلينا بالوصايا، ربما في منتصف الثلاثينات، أو بعدها بقليل.

تحسستك لأتأكد أنني لا أحلم، وتأكدت من أنك ما زلت حيًّا. حاولت إفاقتك فلم تستجب لي، فصنعت من أغصان الأشجار اليابسة كيفما اتّفق محفّة وضعتك عليها، وجررتك حتى عدنا آخر النهار إلى الكوخ، وأنا لا أستطيع تمالك نفسي.

امرأتي وشادية فوجئتا بك، وضعتك في الحجرة الخالية بين حجرتي وحجرة شادية، الحجرة التي كنت أجعل امرأتي تبيت فيها لتتركني على راحتي في حجرتي. لبثنا ساهرين عليك عدّة أيام نداويك ونطببك إلى أن استيقظت. عندها فوجئت بأنك لا تذكر شيئًا ولا تعرف من تكون.

تخيّل يا سيّدنا، أنت؛ أستاذي ومعلّمي، مُعْتِقي، تجلس بين يديّ لا تدرك أنك المُعْتِق العظيم، الرجل الذي شكّل حياتي وظللت طوال عمري أحلم بعودته، فماذا أفعل؟

الفكرة تشكّلت في ذهني بينما تسألني من تكون، فأجبتك بثقة، وسط دهشة شادية، أنك حفيدي، وشادية ابنة عمتك.

كنت قد قضيت السنين الماضية أخبر شادية أنه لم يعد هناك بشر سوانا، زوجتي صدّقتني لأنها رأت بعينيها أهل قريتنا وهم يتساقطون، ولم أجد صعوبة في إقناعها بأن هذا حدث في كلّ القرى، خصوصًا وأنها صارت تأخذ كلّ ما أقوله كأمر مُسلّم به. قلت لشادية إن هذا الفتى الذي وجدته في الغابة هو آخر بشريّ، بعد أن يتعافى ويصير في مقدوره الرحيل قد يتركنا ويغادر، فتضيع فرصتها في وجود وليف يشاركها حياتها، لذلك سنقنعه أنه ابننا، ينتمي إلينا، لا يمكنه أن يتركنا ويرحل. لم تبدُ لي مقتنعة، غير أنها كانت تُراقبك بوَلَهٍ، وعرفتُ أنك وقعت موقعًا في قلبها، وأنها ستسايرني لتحتفظ بك».

(١٥)

«مرّ شهر وأنت معنا يا سيّدنا، تقيم تحت نفس السقف الذي أقيم تحته. عندما كنت تابعك المخلص لم أكن قريبًا منك كما أنا الآن، أدركت أن هذا تعويض عن كلّ السنين التي حُرمت فيها منك. لم أشغل بالي طويلاً بصغر سنك، لم أُفكّر أنك يجب أن تكون الآن في الثمانين من عمرك، نحن على أرض الخلاء وكلّ شيء ممكن. أحيانًا كنت أُفكّر أنك قد لا تكون المُعْتِق الذي عرفته، ربما آخر يشبهه، لكنّي عندما أراك تتحرّك وتتكلّم، عندما ألمح البراءة التي تطلّ من عينيك، سذاجة الأطفال التي تتحدّث بها، أعود وأقول إنه أنت، أنا رأيتك في شبابك قبل أن تصير المُعْتِق وأذكر حركاتك وسكناتك، لا يمكن إلا أن تكون المُعْتِق. كنت أبذل مجهودًا لأتظاهر أمامك أنني أكثر منك علمًا وأوسع تجربة، وكنتَ تساعدني ببراءتك ونسيانك لكلّ ما فات، وجدتك قطعة صلصال بلا ملامح، بإمكاني تشكيلها كيف أشاء، فأدركت أن أمامي

مهمة أجلّ من كلّ ما هيّأت نفسي له طوال حياتي، سأكون مسؤولاً عنك، سأزرع أفكارك وأصنع شخصيتك، سأُحوّلك إلى المُعْتِق العظيم الذي عرفناه، سأعلّمك كلّ شيء، سأحميك من كلّ شيء. أشعر بمواليد النور، أولئك الذين تجاهلونني طوال السنين الماضية، يتحركون من أجلك، علموا بوجودك ويريدون أخذك مني. لن أسمح لهم، سأذلّهم كما أذلّوني، ليصلوا إليك عليهم أن يعترفوا بي، يجيئونني ويمنحونني نفس ما سيمنحونه لك، يجعلونني مُعْتِقًا معك، وإلى ذلك الحين لن أتركك تخرج من الكوخ، ستبقى هنا تحت عينيّ بعيدًا عنهم، سأزوّجك شادية حفيدتي، وستنجب منها ذرّية جديدة تملأ بها أرض الخلاء، ذرّية من صلبي وصلبك، يعرفون كلّهم الوصايا ويبجّلونني أنا وأنت.

أخبرتك أنك نمت طوال ثلاثين عامًا ولم تستيقظ إلا الآن، كنت أريدك أن تُصدّق أنك صفحة بيضاء وتمنحني نفسك لأكتب عليها ما أشاء. غير أن شادية الملعونة عاندتني، أرادتك لنفسها. جئتني ذات يوم تقول إنها أخبرتك أنك لم تنم ثلاثين عامًا كما أفهمتك، بل فقدت وعيك منذ أيام، ولم تذكر شيئًا عندما استيقظت. أرادت الاحتفاظ بقرابتها لك، وفي ذات الوقت لا تتركك لي.

أدركت حينها أن معركتي لن تكون مع مواليد النور وحدهم، بل كذلك مع شادية، تلك الملعونة التي تدرك أنني لا أستطيع الاستغناء عنها لأني بحاجة للذرّية التي ستأتي منها، الذرّية التي ستكون من صلبي وصلبك.

عندما يبلغ صبري معها منتهاه؛ أفكّر في التخلص منها، ثم أتراجع وأتذرّع بالصبر، ألم توصني يا سيّدنا أن أضع الصبر نصب عينيّ دومًا،

وألا أؤذي مخلوقًا؟ كنت أستعجل مجيء ذريتكما، أُحدّثها بلطف عندما لا تكون موجودًا، وأعرض عليها أن أزوّجكما، أسألها: ألا يعجبك؟ ألا تريدينه؟ لكنّ الخبيثة كانت تدرك نيّتي، تردّ عليّ بسخريتها المقيتة أنها لن تمنحك نفسها إلا بعد موتي، تقول إنها تعرف أن فائدتها ستنتهي بعد أن تُنجب، فأتميّز غيظًا، وأتركها بعد أن أتوعّدها إن اقتربت منك بغير زواج بأني سأمزّقها وألقي بأوصالها لذئاب الغابة. آمل أن أستطيع تحطيمها، لتصبح مثل جدّتها البلهاء، لا عقل لها ولا رأي، كلّ ما أحتاجه منها رحمها، ما إن تُنجب لنا ثلاثة أو أربعة أبناء حتى أُلقي بها إلى ذئاب الغابة، وسأقنعك أنك لست بحاجة إليها، سأخبرك حينها أنك المُعْتِق، سأريك هذا الدفتر وأتركك تقرأ كلّ ما فيه، لتتذكّر من أنت وماذا ستكون. أعرف أنك ستسامحني حينها على كلّ ما فعلت، ستمتلك من الحكمة ما يجعلك ترى أنني ما عملت إلا لصالحك، ألم تكن تتألّم وأنا أصبّ دواء الأعشاب في فمك حتى تستعيد عافيتك سريعًا؟ أتنقم عليّ لأني آلمتك أم تدرك أنني كنت أساعدك؟

ليس كلّ الألم شرًّا يا سيّدنا، عندما تعود سيّدنا الذي أعرفه لن أحتاج لتذكيرك بذلك، لكنّ كلّ شيء سيأتي في أوانه، فالصبر الصبر.

(١٦)

أخذت تضرب رأسك في جدار الحفرة حتى أدميتها، الجدّ ليس الجدّ، وشادية ليست الحبيبة.

أأنت المُعْتِق الذي قرأت عنه في دفتر الجدّ؟! لا تذكر شيئًا قبل استيقاظك في الكوخ، قبل أن يخبرك الجدّ بأنك الحفيد، وأنه سيأخذ بيدك ويُعلّمك كلّ شيء، لا، لست ذلك الرجل القادر على ملء القلوب بالطمأنينة، كيف وقلبك يصرخ الآن يبحث عن يقين ولا يجد؟! أنت مسكين، لم يعد لديك أحباب، كلّهم خدعوك.

شادية خدعتك كما فعل الجدّ، لا، بل كانت أسوأ. الجدّ لديه دوافعه، إرث عشرات السنين كان يُثقل كاهله، والدماء تُلوّث يديه، أما شادية فما عذرها؟ طوال تلك الأيام كانت تخدعك، تقول تعالَ لنرى الخارج، تعالَ لنعبر الغابة، الجدّ يخدعك، أنا أريد مصلحتك، إلى متى ستبقى

كما أنت، بينما هي من البداية تعرف أنك لست الحفيد، ولا تنتمي لهم، فأيّهما الأسوأ؟

آه يا شادية، كيف استطعتِ الكذب عليّ!

صرختَ بأعلى صوتك فهبّ الذئب من مكانه، وتحرك الفرخ في مرقده، فلم تهتم لهما، سقطت على ركبتيك وضربت الأرض بقبضتيك، غرست أصابعك في التراب وحاولت أن تخترق الأرض، فآلمتك جروحك القديمة، لكنّك لم تهتم، أردت أن تتألّم أكثر. تبكي بغضب، تبكي بحرقة، تشعر بالسائل الدافئ يغمر خدّيك وأسفل أنفك، ولا تهتم بمسحه، أنت المخدوع المهزوم دومًا، كنت كالكرة بينهما، لعبا بك، استخدماك في معركتهما، لم تكن تساوي لهما شيئًا، كانا يسعيان فقط للانتصار، لإرضاء نفسيهما، أما أنت.. أنت لا أحد لك، لا جدّ ولا جدّة ولا شادية، أنت مجرد غريب وجده الجدّ ونسج حوله أساطيره، غريب أرادته شادية لنفسها، كان من الممكن أن يجد الجدّ شخصًا آخر، وكان سيلعب معه نفس اللعبة، وشادية كانت سترمقه بنفس النظرات الوالهة، ستحاول استمالته إليها، وستهمس في أذنه بنفس العبارات التي همستها لك، ستمسك يده بذات الطريقة وتخبره أنهما مقدّران لبعضهما، وستدعوه ليهرب معها ويعبرا الغابة.

تمرغتَ في الأرض تودّ لو تستطيع دفن نفسك، لا تستطيع تحمّل مشاعرك، شعرت بجسدك يسخن ونبضات قلبك تعلو، حتى لم تعد قادرًا على سماع أفكارك، صرخت حتى بحّ صوتك، شعرت أن الروح تغادرك، أهذا ما شعر به الغزال عندما أطبق الذئب على عنقه؟ لو كان في هذا راحتك، فأهلاً به.

ظللت هكذا إلى أن خارت قواك، ففقدت الوعي.

كان الذئب سينهض ليقترب منك، إلا أنك استيقظت بعد دقيقة، فبقي في مكانه. استيقظت وأنت لا تذكر أيّ شيء، اخترت أن تمسح ذاكرتك المرتبكة كلّها وتبدأ من جديد، فلم تدرِ من أنت ولا ماذا تفعل في قعر الحفرة، ولا لماذا يجاورك ذئب وفرخ صغير، لم تدرِ لِمَ ملابسك ممزّقة والخدوش تملأ ساعديك. لم تعد حتى تذكر الجدّ والجدّة وشادية، غابت أيام الكوخ عنك، وعاد ذهنك صفحة بيضاء، تمامًا كوقت استيقاظك في الكوخ أول مرة؛ وفي تلك اللحظة ملأتك رغبة جارفة في أن تعرف من أنت، تساءلت من أعماقك عمن تكون، وإلى أين تمضي، توجّهت مشاعرك إلى من يستطيع إجابتك، وعندها كان علينا أن نجيب النداء.

(١٧)

وهكذا جئتنا.

نحن لسنا في مكان محدّد، نحن في كلّ مكان، تسمع صوتنا في ذهنك، وتشعر بنا في قلبك، كلّ ما كنت تحتاجه أن ترغب صادقًا أن تعرف نفسك، ترغب مخلصًا أن تصل لحقيقتك، يشتعل فؤادك بذلك، فلا تطمح في الدنيا لسواه، بلا شروط أو تصورات مسبقة؛ وعندها تجدنا في قلبك نخبرك بكلّ شيء.

الفرق بين الآن وبين استيقاظك الأول في الكوخ أنك لم تفعل، سلّمت أمرك للجدّ وشادية منذ اللحظة الأولى، استمعت إليهما وصدّقت ما أخبراك به عن نفسك، فضللت الطريق.

والآن قلبك خلا من كلّ شيء، فامتلأ بنا.

جئتنا تبحث عمن تكون، وقد اجتمع بداخلك نسيان فوق نسيان، فلم نتأخر عليك، وقصصنا عليك حكايتك التي لم تعد تذكرها.

ليست هذه مرتك الأولى، جئتنا من قبل مرات عديدة، وستجيئنا مرات أخرى، لن تتوقّف عن المجيء إلينا، هي دائرة لا تنتهي، تأتينا بوجوه مختلفة، لكن بنفس القلب الحار. نراقبك طوال الوقت وأنت في الجهة الأخرى، نرى حيرتك ونشفق عليك، ونعرف أنك ستأتينا في النهاية، لأنك هكذا تكون.

أتذكر الآن المرة السابقة؟ عندما ألقيت بنفسك في النهر، وعينك على الشطّ الآخر، الشطّ الذي يخبرك داخلك أنك ستجدنا عنده، سبحت بعزم، لم تكن تقاوم الماء والدوّامات فقط، بل كنت كذلك تجاهد الخوف الذي زرعوه بداخلك، لا أحد يصل للشطّ الآخر سوى الموتى. النهر كان حنونًا معك، رغم أن مياهه تلقفتك وتلاعبت بك بقسوة، كان قد نوى أن يأتينا بك كما أردت، النهر خادم مطيع، يرحب بمن ينوون العبور، يرجّهم بين أمواجه ليختبر صدقهم، ثم يأخذهم في النهاية إلى شطّنا. هناك من يسقطون في منتصف الطريق، يجتاحهم خوف الآباء فيفقدون السيطرة على أنفسهم، يدرك النهر هلعهم، يفهمه على أنهم يودّون العودة مهما كان الثمن، يرفضون العبور إلينا، يخشون ما سيجدونه هنا، لا يقوون على مواجهته، يفضّلون الرحيل عليه، يسألهم: أتودّون فعلاً العودة؟ يمكنكم العبور إلى هناك بأمان، فيجيبه خوفهم أن نعم، أعدنا من حيث جئنا بأيّ شكل، فلا يجد مناصًا من تنفيذ رغبتهم، النهر خادم مطيع، نشعر حينها بمدى أسفه، بالألم الذي يعبر روحه، وهو يأخذهم إلى أعماقه

لدقائق، ثم يعيد جثثهم إلى أهلهم على الشطّ الذي جاءوا منه.

أنت الوحيد، في كلّ مرة، من كانت نيّته تظلّ ثابتة، تتلاعب بك الأمواج، ويسألك النهر: أتودّ حقًا العبور إلى هناك؟ فيجيبه قلبك أن أجل، يلمس الخوف المتبقي بداخلك، فيسألك ثانية: أأنت متأكد؟! ألم يخبروك أن الموتى فقط هم من يعبرون؟ فتجيبه في كلّ مرة أنك لا تُصدّقهم، ما أدراهم بحقيقة الشطّ الآخر؟ عندها نسمع من مكاننا تنهيدة ارتياح النهر، يظلّ يتقاذفك بين أمواجه وهو يعتذر لك: ستصل إلى هناك، سامحني لأنك ستصل منهكًا، كغريق نجا من الموت. ذلك أنك عندما تصل للشطّ الآخر، ستحيا من جديد، فتحمّل آلام العبور، تصل لسعادة الاكتشاف.

عندما يصل إنهاكك لآخره، وتغمض عينيك تاركًا نفسك للمياه لتذوب فيها، يصل عبث النهر لمنتهاه، ويحملك بتبجيل ليسجيك على أرض الشطّ، وتظلّ أمواجه تلامس أطراف قدميك، وكأنّه يربّت عليك مهنئًا، بينما رمال الشطّ تجمع نفسها وتتكوّم تحتك لترتاح في نومتك، وهي تنادي بعضها: أحدهم، أخيرًا، فعلها!

أرأيت؟ أنت الآن تتذكّر. تستعيد مئات المرات التي جئتنا فيها طوال العصور الماضية، جئتنا بوجوه وأسماء مختلفة، لكن بنفس القلب البِكر.

وفي كلّ مرة لم تكن تنسى من تركتهم خلفك. في كلّ مرة، ومهما طال بقاؤك بيننا، كنت تفكّر في قومك، تطلب منا أن نتركك تعود إليهم لتخبرهم بما رأيت هنا، وكنا ندرك أنك ستحاول العودة بهم، تريدهم أن يأتونا معك، يعبروا النهر إلينا معك، نعرف أنهم لن يصدّقوك، لكنّنا

لا نرغب في منعك، يمكنك المحاولة، كنّا نحبك لأجل هذا، لأن نفسك امتلأت بالحبّ الكافي لتتركنا وتعود من أجلهم.

ما أنت إلا طفل في صورة رجل، لذلك نجوت، وستنجو في كلّ مرة.

القسم الثالث

(١)

فتحتُ عينيّ ذاهلاً عن كلّ ما حولي.

لكأنّي استيقظت من حلم طويل، الآن أذكر كلّ ما مضى، جسدي وذهني يشعران بالتعب، لكنّ قلبي يزقزق كالعصفور الصغير. ملأتني الراحة. عندما نسيت ثم تذكّرت، لم يعد الجدّ وشادية يمثلان لي نفس ما كانا، لم تعد خديعة الجدّ ولا خيانة شادية بنفس الثقل السابق. شعرت كأنّهما شخصان آخران لا أعرفهما، كأنّي أستمع لقصة خيالية كنت بطلها. أهو النسيان، أم استرجاع الأمور بنظرة مغايرة، أم هي حكمة جديدة اكتسبتها؟

أدور بعينيّ في المكان، فأجد الذئب يرمقني بعينيه المنيرتين وسط الظلام، يحاول استطلاع ما جرى، لا بدّ إني استفززته بكلّ الصخب

الذي أحدثته في الدقائق الماضية، لمحت في عينيه نظرة مختلفة، أرأى في عينيّ شيئًا جديدًا فهابني؟

قاع الحفرة كانت تربته لينة، رفعت غصن الشجرة وأخذت أحفر به قرب الجدار، الأمر كان شاقًا إلا أنني كنت ممتلئًا بالإصرار. الصغير يراقبني باستغراب، والذئب يتطلع إليّ بترقّب، يقيسني من جديد، أتوقّع أن يهاجمني قريبًا، بالنسبة إليه كنت خصمًا سهلاً يمكنه الانقضاض عليه في أيّ لحظة، بعد أن يفرغ من آخر قطعة في الغزال، أو بعد أن يقتنص القرد الذي يزورني من آن لآخر، أما الآن فقد شعر بطاقة مختلفة تنبعث مني. لا أدري ما هي، لا أشعر أني صرت مختلفًا، ولا أجد بداخلي أيّ فرق، فقط صرت أدرك من أنا، وأعرف ما أريد. وما أريده الآن أن أغادر هذا المكان بأقصى سرعة.

جزء بداخلي كان يرى الجدّ وشادية من بعيد، بلا مشاعر ولا روابط، فيقرّ بأنهما لا يستحقّان سخطي، بل حذري. اثنان وقعا تحت سلطان ضعفهما، فتصرفا حسب مصالحهما، ووجدا شخصًا استمع إليهما وصدّقهما، فخطأ من هذا؟! لا أدري، لا يمكنني تحميل الخطأ لنفسي، لماذا يجب تجريم أحدنا؟ أكان عليّ أن أشكّ في كلّ كلمة يقولانها؟ لمن كنت سألجأ سواهما لأعرف قصتي؟ وهل كان على الجدّ عندما وجدني أن ينسى كلّ تاريخه، ويخبرني بأني مجرد غريق أسعفه؟ أم كان على شادية أن تخاطر بفقدي وتصارحني بأني لست حفيد الجدّ كما يدّعي؟ لا أجد إجابة على تلك الأسئلة التي تصطرع في رأسي، وأُفضّل أن أتجاوزها وأتوقّف عن التفكير فيها.

بعد ساعة من العمل المتواصل، نجحت في صنع حفرة داخل الحفرة، يمكنني أن أدخل فيها ذراعي فيختفي حتى كوعي، وبجانبها كوّمت الصخور والتراب الذي استخرجته من باطنها في تلّة صغيرة، كانت تعلو أمام عينيّ دقيقة بعد أخرى. وقفت فوق التلّة وقست المسافة حتى حافة الحفرة، بدت لي تحتاج أن ترتفع أكثر، فعدت إلى العمل، والذئب يتابعني بقلق. لا أصدّق أننا عشنا معًّا طوال الأيام الماضية في حفرة واحدة لا تزيد مساحتها على عدّة أمتار، بشكل ما صرت أعرفه، تولّدت صلة ما بيننا، رغم الشكّ والحذر.

بعد ساعتين أخريين ارتفعت التلّة أكثر، فشعرت أن الوقت قد حان. ربما لن تتاح لي الفرصة لأُجرّب أكثر من مرة، الذئب سينتبه إلى ما أفعله وسيمنعني.

أمسكت بالصغير، فزقزق بين يديّ، كأنّه يسألني عما أنويه. وضعته على حافة الغصن بحرص، ورفعته لأعلى نحو حافة الحفرة، ثم ألقيت به خارجها. تحفّز الذئب في مجلسه، فتظاهرت بأني لا أراه، جلست ساكنًا في مكاني إلى أن هدأ. تأمّلت جثة الغزال، التي التهم الذئب أجزاء كبيرة منها، عيناه ما زالتا مفتوحتين وجاحظتين، شاخصتين ترمقان اللاشيء، كأنّه تفاجأ أو لم يتوقّع أن ينتهي أمره سريعًا. هل بالإمكان لوم الذئب لأنه تبع غرائزه، وتصرّف كما ينبغي له ليعيش؟ الغزال كان عليه أن يحمي نفسه، تمامًا كما كان عليّ ألا أنخدع بكلام الجدّ وشادية.

اقتربت من الجثة، أو ما تبقى منها، وعندها نهض الذئب غاضبًا، وبدا أنه يستعد للانقضاض. جررتها بسرعة إلى فوق التلّة، ثم صعدت فوقها، واستعددت للقفز وأنا أشعر بعظام الغزال تتصدّع تحتي، لوهلة بدا لي أني لن أنجح، لكن عندما تخيّلت الذئب يتحرك نحوي؛ قفزت بكلّ ما أملك من قوّة، فاردًا ذراعيّ لأعلى، وتمسكت بحافة الحفرة بكلّ ما أملك من عزيمة، نفرت عروقي وشعرت بأظفاري المتبقية تكاد تنكسر، وتلحق بإخوتها، من ضغط انغراسها في التربة. حاولت رفع نفسي، وأنا أسمع زمجرة الذئب، بركن عيني لمحته ما زال واقفًا في مكانه مكشّرًا عن أنيابه، لماذا لم يهاجمني حتى الآن؟ بإمكانه أن يعتلي جثة الغزال ويصل إليّ، يطبق فكّيه على ساقيّ، الفكرة ملأتني بالرعب، والرعب جعلني أجذب نفسي بقوة أكبر، لكنّي لم أنجح في رفع نفسي، كنت هزيلاً ولم آكل جيّدًا منذ أيام، فشعرت أن ذراعيّ تتمزّقان وأني سأفقد السيطرة عليهما في أيّ لحظة.

فجأة وجدت يدين تمتدان إلى ذراعيّ فتجذبانني لأعلى، لوهلة ظننت أنه الجدّ أو شادية، ثم انتبهت في اللحظة التالية إلى أن هناك أربع أيدٍ تشدّني، كان هناك قردان فوق رأسي، كلّ واحدٍ منهما يمسك بذراع من ذراعيّ ويجذبها. بمساعدتهما وجدت نفسي مستلقيًا على ظهري خارج الحفرة ألهث، أرى الأشجار للمرة الأولى منذ أيام لم أعد أعرف عددها. رمقتهما ممتنًا، إلا أنني فوجئت بعدّة قرود تحيط بي، تتحرك وتطلق أصواتها الصاخبة، فأدركت أن القرد الذي

لازمني طوال الفترة الماضية لم يكن قردًا واحدًا. الصغير كان على بعد خطوات مني، القرود أزعجته فتحرك بعيدًا عن حافة الحفرة، وهو يحدّق فيها بغضب ويزقزق محتجًّا.

كدت أركن للراحة، لولا أن القرود أخذت تقفز حول الحفرة وتصرخ، فعرفت أن الذئب على وشك الوثب إلينا، تلفّت حولي والتقطت غصنًا طويلاً قريبًا، وأسرعت إلى الحفرة وأنا أحمله بصعوبة. كان الذئب يتطلع إلينا من أسفل وقد اعتلى جثة الغزال وأوشك أن يقفز ليتبعني، وقفت لوهلة أتأمله بحيرة. لماذا لم تهاجمني قبل أن أقفز؟ كان بإمكانك في أيّ لحظة أن تنقضّ عليّ، لكنّك لم تفعل. طوال الأيام التي قضيناها معًّا في الحفرة، لا يفصل بيننا إلا متران أو ثلاثة، لم تؤذني. هل تركتني أحاول مغادرة الحفرة كما تركتك طوال الأيام الماضية تحاول؟

مع ذلك يا صديقي لا يمكنك أن تغادر الآن، خارج الحفرة ليس كداخلها، في الخارج ليست هناك جثة الغزال لتتغذّى عليها وتتركني، قد أعود فريسة في نظرك، لا مجرد جارٍ قد تستعين به ذات يوم. دفعت الغصن في وجهه، فتراجع وضربه بمخالب يده، كأنّه يختبره، وأخذ يرمقني ويزوم. بذلت مجهودًا لأزيح بالغصن جثّة الغزال وأُسقطها من فوق التلّة، ثم تركت الغصن مستندًا بزاوية إلى جدار الحفرة، من الحافّة وحتى التلّة. سيقضي الذئب وقتًا في محاولة القفز عليه، نكون خلاله قد ابتعدنا، أنا وأصدقائي.

حملت الصغير وأسرعت، والقرود تحيط بي، وبعد دقائق سمعنا صوت عواء طويل، تجاوبت معه عواءات أخرى من أماكن متفرّقة.

(٢)

عشت لأيام بين القرود، علّموني كيف أتسلّق الأشجار وأنام فوق أغصانها من دون أن أسقط، لا أدري أكنت أنا من تعلّم بسرعة، أم إن الشجرة أمرت لحاءها ليكون خشنًا بارزًا تحت أصابعي فأتمسّك به بسهولة. كلّ ليلة كنت أسهر أتأمّل نجوم السماء، وأتحاور مع روح الغابة، أسمع صوتها في قلبي، وأظلّ أحدّثها إلى أن يغلبني النعاس. أصبحت أسمع صوتي يتردّد في رأسي أكثر وضوحًا، فيما مضى كان مشوّشًا، كلّما حاولت التفكير أسمع صوت الجدّ أو شادية داخل ذهني، الآن أسمع صوتي، وأُحبّه.

في الأيام التي كانت السماء تمطر فيها، والقرود تختبئ تحت أغصان الأشجار كي لا تبتلّ؛ كنت أقف بين الأشجار تحت المطر، أتلقاه وأرقص. ملابسي تمزّقت، ولم يتبقَ لي إلا جزء من بنطالي يسترني، مع

ذلك لم أشعر بالبرد وأنا أرفع يديّ عاليًا وأدور ضاحكًا تحت المطر، أشير للقرود نحو الأشجار وأهتف بها: أترون الأشجار تختبئ من المطر؟ مع الوقت تشجّعت القرود لتقلّدني، وصارت تتقافز تحت المطر بجواري، بينما الأشجار ترمقنا مبتسمة.

اغتممت ذات صباح عندما استيقظت فلم أجد العصفور الصغير بجواري، أخذت أبحث عنه بجزع، هبطت من فوق الشجرة وبحثت حولها فلم أجد له أثرًا على الأرض، سألت القرود عنه فلم تفهمني. ربما غادر وحده، استطاع الطيران أخيرًا، ووجد في نفسه القدرة على الرحيل؟ كيف يتركني؟! مكثت طوال ذلك اليوم عند نفس الشجرة، لعلّ الصغير يعود فيجدني، لكنّه لم يعد، فشعرت أنه تخلّى عني، وامتلأت نفسي بالحنق تجاه رفيقي الغائب.

لم أفكّر في ما سأفعله بأيامي، تركت نفسي للغابة، أعيش يومي مستمتعًا بخيراتها، أتأمّل مبهورًا ما تكشفه لي من أسرارها، كنت سعيدًا مبتهجًا، أدرك المخاطر التي قد تتربّص بي، وأن الذئاب ليست الحيوانات المتوحشة الوحيدة التي قد تهاجمني، ومع ذلك كنت أشعر أن الغابة بيتي، أن حيواناتها وطيورها وأشجارها أهلي، رفاقي الذين لن يكذبوا عليّ أو يخدعوني، ولن يحاولوا الاستحواذ عليّ.

أنام بين القرود فوق الأغصان؛ وأشعر أن كلّ شجرة تدثّرني بأوراقها، وكلّ فرع يستطيل ويتسطّح تحتي كأنّه يسوّي لي فراشي لأنام هانئًا حتى الصباح. وكلّ ليلة أتذكّر الصغير، وأظلّ حتى نومي أتخيّل ما سأقوله له عندما يعود، سأذكّره بما فعلته معه، وسأعاتبه على

هجره، سأقسو عليه بكلماتي حتى يبكي، ثم عندما أجده قد ندم على رحيله آخذه في حضني ونعود صديقين.

في نهار صحوٍ تسابقت مع أرنب، كان ينطلق أمامي بأقصى ما يملك، وهو يظن أني أسعى لاقتناصه، وأنا أحاول أن أسبقه وأتجاوزه، عندما وجدت نفسي فجأة أمام الحفرة التي عرفت نفسي فيها. توقفت أمامها جامدًا، وتركت الأرنب يسبقني، سمعت صوتًا داخلها، فاقتربت بحذر، سأساعد الحيوان الذي في الداخل، أيًّا ما كان، على الخروج، ثم أردم الحفرة كي لا يسقط فيها أحدٌ آخر. ربما أقضي أسابيع في ذلك، لكنّي سأحاول. ولما أطلّيْت داخلها، إذا بي أُفاجأ بشادية!

تراجعت غير مصدّق، في البداية ظننت أني أحلم، هي شادية بشعرها المهوّش الذي طال قليلاً، وملابسها التي تمزّقت وبليت وكشفت في أكثر من موضوع عن جسدها البضّ الذي امتلأ بالخدوش. كانت تنظر لي بذهول، تحاول أن تستجمع نفسها لتتكلّم فلا تقدر. جلست على ركبتيّ عند حافة الحفرة لأن قدميّ لم تقويا على حملي أكثر، وأنا أحاول التغلّب على الانفعالات التي تجتاحني. قطعت هي الصمت بيننا عندما ضحكت وقالت بدهشة وهي تشير إليّ:

«لحيتك وشاربك نميا، لم أعرفك!»

ثم سألتني بدهشة:

«ما الذي جاء بك هنا؟ منذ متى وأنت في الغابة؟ ملابسك وشكلك.. تبدو كأنّك...»

حاولت السيطرة على دموعي وأنا أقول لها بصوت مرتجف:

«أنتِ حيّة!»

ضحكت وهي تقول:

«الغابة أنهكتني طوال الشهر الماضي، لكنّي نجوت. الليل أقضيه فوق الأشجار، وأتجوّل في النهار بحثًا عن طعام».

ثم سألتني بدهشة:

«ما الذي جرى لك؟! نظرة عينيك مختلفة، وشكلك.. هل جدّك...»

شعرت بقلبي يمتلئ غضبًا نحوها، قاطعتها قبل أن تكمل:

«ليس جدّي، قرأت دفتر المذكّرات وعرفت كلّ شيء. عرفت أنكِ خدعتيني!»

طأطأت برأسها وهي تقول بصوت خافت:

«هلّا ساعدتني على الخروج أولاً ثم نتكلم؟ منذ يومين وأنا في الحفرة، ولم آكل شيئًا».

لاحظت هيكل الغزال المتحلّل بجوار التلّة التي صنعتها، شادية لم تنتبه إلى دفتر الجدّ الذي غطّاه الغزال. دلّيت نصفي الأعلى عبر الحفرة، ومددت لها ذراعي، وأنا أقول:

«اصعدي فوق تلّة التراب هذه، واقفزي وسأتلقفك».

فعلت كما قلت، فأمسكت بذراعها، كانت ضئيلة خفيفة، ولم

تشكّل عبئًا عليّ، استطعت جذبها إلى الخارج بسهولة.

قالت وهي تلهث:

«لا أعرف ماذا حدث بينك وجدّك.. أقصد بينك وبينه، إلا أنني سعيدة أنك غادرت الكوخ».

ولما رأت نظرة عينيّ الغاضبتين، غمغمت بخجل:

«لم أقصد خداعك. أردتك بجواري، ما كنت لتتركني وأنا ابنة عمتك، وحاولت طوال الوقت أن أدلّك على الطريق الصحيح، كنت دائمًا...»

أوقفتها بإشارة من يدي وأنا أقول بجفاء:

«أنتِ شاركتِ جدّك في خداعي، تركتماني طوال شهور أتمرّغ في خوفي، فلا تدّعي الآن أنكِ كنتِ تسعين لصالحي، أنتِ وجدّك نفس الشخص، بوجهين مختلفين!»

وتركتها ومضيت عائدًا إلى مكان القرود، وشعرت بها تتبعني صامتة.

(٣)

لم أستطع ألا أسامحها، ظللت لعدّة أيام أرفض التحدّث إليها، لكنّها لم تيأس مني. كان بإمكانها تسلّق الأشجار أفضل مما أفعل. قالت إن الجدّ كان يتركها تلعب بجوار الحقل وهي طفلة، لم يكن قبل مجيئي يمنعها من الخروج والتجوّل حول الكوخ، فكانت تتسلّق الأشجار القريبة وتلعب فوق أغصانها. الأشجار بدت كأنّها تعرفها، وتتقبّل وجودها بيننا، ترمقني باستعطاف وتهزّ أغصانها تطلب مني أن أسامحها. وأنا لم أكن مصممًا على غضبي، مرآها في الحفرة أيقظ بداخلي كلّ الغضب الذي تجاوزته، لكنّه لم يستمر طويلاً، أطلقته عندما عاملتها بجفاء في الأيام الأولى. وهي كانت مندهشة من التحوّل الذي أصابني، تراقبني مبهورة وأنا أتعامل مع الأشجار والقرود، وأنا أحدّث الرياح وأقلّد صوت الضفادع وأرقص تحت المطر.

نستلقي في الليل معًا، تحت قبّة السماء، أشير لها نحو النجوم وأخبرها بالأسماء التي أطلقتها عليها، آخذها إلى المكان الذي اكتشفته في الغابة حيث تنمو الزهور، نشمّ معًا روائحها، وأسمّيها لها واحدة واحدة، كما عرفتها في كتاب الموجودات، أقرّب أصداف الحلزون التي ألتقطها من الأرض إلى وجهها، وأطلب منها أن تتطلع عبرها لترى الحلزون مختبئًا في الداخل.

في النهار كنت أعلّمها كلّ ما أعرفه، كلّ ما اكتشفته، كلّ ما أسرّت به الغابة إليّ، وفي الليل كانت تُعلّمني كيف أُحبّها، كيف أحتضنها وألمسها وأمتزج معها حتى نصير واحدًا، فأرتجف وتدغدغني النشوة، ويملأني الإحساس بالامتلاء، كأنّي نصفٌ اكتمل، وتبدو أمامي كلّ التجارب التي مررت بها في الغابة كأنّها نقطة في بحر ما تفتحه أمامي شادية من عوالم مبهرة، فتجيش نفسي بالامتنان لها، وأستمر في اكتشاف نفسي بلمساتها.

نستلقي بعدها متجاورين فوق غصن شجرة كبير، نلتقط أنفاسنا مبهورين، وأشير إلى الأشجار حولنا، التي أضاءتها ألوف من النقاط الصفراء الصغيرة، كأنّها تزفّنا، وأقول لها:

«هذه ديدان تضيء في الظلام، اسمها في كتاب الموجودات سراج الليل».

لم نعد نشعر بالأيام، فكّرنا أن نبني لنا بيتًا فوق الأغصان، رغم أنني لم أكن أعرف كيف. لم نعد نذكر الجدّ ولا أيام الكوخ، تظاهرنا كأنّها لم تكن، كنا نعرف أنه موجود في مكان ما وسط الغابة، وأننا قد

نلتقي الجدّ في إحدى جولاته، إلا أننا صرنا قادرين على مواجهته.

ذات يوم، قرب المغيب، كنت أسند رأسي إلى حجرها تحت جذع شجرة، نستعدّ لتسلّق الأغصان قبل انتشار الحيوانات المفترسة، عندما باغتنا صوت بندقية الجدّ.

الطلقة جاءت من بعيد، في عمق الغابة، من الموقع الذي كنا نتجنب الاقتراب منه، لأن الكوخ يقع عنده. انفجر صوت طلقة أخرى، وتبعه عواء الذئاب، فأصابني الجزع. القرود أخذت تتقافز في أماكنها بقلق، وأسرعت بتسلق الأشجار، بينما أسرعت أنا أركض من دون تفكير نحو مصدر الصوت، وأنا أسمع خطوات شادية تتبعني.

سمعنا صوت طلقة أخرى، الطلقات تتتابع، لا يفصل بينها إلا ثوانٍ قليلة. غادرت حزام الأشجار لأجد نفسي أمام حقل الجدّ، المكان الممتلئ شجنًا وألمًا، فهالني ما رأيت.

الجدّ كان مستلقيًا على ظهره وسط الحقل، وبجواره جثتا ذئبين، والبندقية متدلّية من يده، بينما يقف ذئب آخر فوق صدره ويطبق بفكّيه على عنقه، لم تبدُ على وجهه آثار حياة، وعند الكوخ كان هناك ذئب آخر ينشب أنيابه في عنق الجدّة، التي سقطت على عتبة الباب، بينما عدّة ذئاب أخرى ترفع رؤوسها للسماء وتعوي عواءً متصلاً، يختلط بقأقأة دجاجات الجدّة المذعورة.

سقطتُ على الأرض وأنا لا أصدّق ما أرى، بينما وقفت شادية ورائي مرتبكة.

لم يبدُ أن الذئب الواقف فوق صدر الجدّ يحاول التهامه، اكتفى

فقط بنهشه ثم استدار ليرمقني، بعينيه الصارمتين اللتين أعرفهما جيدًا. الذئب الرمادي الذي جاورني في الحفرة لأيام. تجمّع القطيع وراءه، ووضعت شادية يدها المرتجفة فوق كتفي. ظللت جامدًا أتبادل النظر مع الذئب الذي استعاد سيطرته على قطيعه، وانتقم من قاتل أبيه، أنتظر في أيّ لحظة أن يهاجمني، إلا أنه لم يفعل. زام في وجهي، ثم انطلق نحو الغابة، يتبعه رفاقه.

بقيت أنا وشادية جامدين في مكاننا لحظات، ثم اقتربنا من جثة الجدّ. لم أستطع السيطرة على نفسي، أجهشت في البكاء والألم يعتصرني. حاولت طوال الأسابيع الماضية أن أكرهه، لكنّي الآن، وأنا أرمق عينيه الخاليتين من الحياة، والدماء التي تنزّ من عنقه، اكتشفت أني لم أتوقّف لحظة عن حبّه، رغم كلّ ما كان.

شادية كانت متماسكة، رغم أنها لم يكن لديها سبب لكرهه، فقد أخفيت عنها أنه من قتل والديها. بدت لي متأثّرة أكثر لما أصاب الجدّة. حملنا الجسدين الحبيبين ووضعناهما بجوار بعضهما، وساعدتني شادية فيما تبقى من تلك الليلة في حفر قبرين كبيرين في الحقل، أدلينا فيهما الجدّ والجدّة، وغمرناهما بالتراب.

(٤)

أقمنا في الكوخ، ومضت الأيام متشابهة، شعوري بالسعادة يقلّ، رغم أن بطن شادية كان يكبر ويتكوّر مبشّرًا ببهجة جديدة. فكرة واحدة كانت تسيطر على عقلي، أحاول صرفها، لكنّها تعاندني وتعود.

أستيقظ كلّ ليلة قرب الفجر، فأخرج إلى الحقل وأقف في العراء أتأمّل السماء. ذات مرة أخذتني قدماي، من دون أن أخبر شادية، فعبرتُ الغابة كالمُنوّم، لم أردّ على تحيّة الأشجار ولم ألتفت لصيحات القرود التي نادتني. ظللت أسير حتى قطعت الغابة لآخرها، ووجدت نفسي أمام النهر، فوقفت أتأمّله مبهوتًا. أشعة الشمس تنعكس على صفحته بعظمة، فتجعله فاتنًا، تذكّرته كما تذكّرني، وأدركت أنني واقعٌ في هواه. قضيت شطرًا من النهار واقفًا على ضفّته أُديم النظر للشطّ الآخر،

قوارب الصيّادين العائدة، الأطفال الذين يلهون، البيوت الصغيرة البعيدة، وملأني حنين غامض استغربته.

ذات مرة ذهبت إلى الحفرة ومعي حبل، ربطته جيّدًا بجذع شجرة قريبة وتدليت لأسفل. أزحت عظام الغزال، فوجدت الدفتر الأسود وقد تهرّأت صفحاته، وصار أغلبها كالعجين بفعل المطر، وملأها العطن، فتركته حيث كان.

قلت لشادية، بعد ذلك النهار بيومين، ونحن جالسان أمام الكوخ إلى مائدة الغداء التي أعدّتها:

«أعرف أن ما سأقوله سيبدو لكِ جنونًا، لكن اسمعيني للنهاية. أنا لا أُصدّق الآن أني قد أكون المُعْتِق العظيم الذي تحدّث عنه الجدّ. ذلك الرجل يبدو حكيمًا ممتلئًا بطاقة ومعرفة لا أجدهما في نفسي. أنا شخص عادي، تاه عن نفسه طويلاً، ثم وجدها، أو ظنّ أنه وجدها. أتدرين كيف أدركت هذا؟ وأنا في الحفرة كنت أسمع صوتًا يحدّثني ويخبرني بكلّ ما غاب عني، لم أكن أذكر شيئًا، فحكى لي كلّ ما كان منذ استيقظت. وقتها تذكّرت مواليد النور، الذين ذكرهم الجدّ في دفتره، وظننت أني قد أكون المُعتِق، وأن مصيرًا حافلاً ينتظرني. ولا أُخفي عليكِ؛ لولا هذا لبقيت مستسلمًا في أعماق الحفرة، ولما بذلت جهدًا للخروج. إحساسي أن مصائر الناس مرتبطة بمصيري حثّني على بذل ما في وسعي، لأن الأمر ما عاد يتعلق بنجاتي فقط. لكنّي عندما صرت أتسلّق الأشجار مع القرود، أتوسّد أغصانها وأرقد الليالي أتأمّل نجوم السماء، وأراقب الطيور وهي تغادر أعشاشها في

الصباح وتعود مع المساء، عندما أصبح قلبي يرقص مع نقرات المطر على جسدي، والغابة تهمس بأسرارها في أذني؛ عندها بدأت أشعر أنني لست المُعْتِق كما ظننت، أنا جزء من هذه الغابة، ربما أنا الغابة نفسها متنكرة في صورة فتى يتقافز تحت المطر. وكلما رمقت السماء أو تبادلت التحيّة مع الأشجار أشعر أن مواليد النور ليسوا أشخاصًا مفارقين يعيشون في مكان بعيد، لا يصل إليهم إلا الخاصة، ويعرفون ما لا نعرف ويرون ما لا نرى، كما ظنّهم الجدّ وقومه، ربما كان مواليد النور صفة، حالٌ يصل إليها أولئك الذين يغوصون عميقًا داخل أفئدتهم، أولئك الذين ينسون حكايتهم التي يعتقدونها، ويخلعون جميع الأقنعة التي وُضعت على وجوههم، حتى يتبدّى النور من تحت آخر قناع.

وهذا المكان، الذي سماه الجدّ أرض الخلاء، ليس خلاءً خربًا. هذه أرض ترتع بالبهجة، لا مكان للزمن فيها، هنا الحياة الحقّة، الناس من حيث جاء الجدّ أموات، لا يدركون أنهم أموات، ولا يعرفون شيئًا عما ينتظرهم هنا، لو عرفوا لما بقوا في قراهم البائسة تلك. من أجل ذلك أقول لكِ إن هناك شيئًا عظيمًا يدور هنا، شيئًا عظيمًا ورائعًا ويتجاوز كلّ خيال، وأنا أشعر بالذنب لأننا نعاين كلّ هذا، وهناك من يعيشون في الضفّة الأخرى من النهر غافلين عما ينتظرهم هنا، لأنهم يخشون المجيء!»

ظلّت تتابعني بعينين دامعتين، وأنا أكمل مترجّيًا:

«صدّقيني، حاولت لأيام تجاهل هذا الشعور، إلا أنه يخنقني ويقضّ مضجعي، ما الذي يجلعني أترك ما أنا فيه، ما الذي يجعلني أتركك

وأنتِ في هذه الظروف، لأمضي في رحلة مجهولة لأحضر معي أناسًا لا أعرفهم؟! لا أعرف، لكن لا يمكنني تجاهل هذا الشعور!»

هالتني نظرة الارتياع التي اندلعت في عينيها. منذ التقيتها في الغابة وأنا أرى كلّ يوم تعبيرات جديدة ترتسم على وجهها، لم تعد شادية التي رافقتني في الكوخ، شادية القويّة الساخرة التي تقتحمني قبل أن أقتحمها، صارت أكثر رقة، عيناها تعكسان طوال الوقت تعبيرات أكثر إنسانية، أصبحت تسمح للضعف أن يبدو عليها، ولم تعد تضع على وجهها أيّ أقنعة. جذبت يدي إليها وقبّلتها بحب، وهي تقول راجية:

«منذ عدّة أسابيع كان منتهى أملي أن أغادر هذا الكوخ، وأعبر الغابة بحثًا عن بشر آخرين أعيش بينهم، أما الآن فكلّ ما أطمح إليه أن نبقى معًا، أنا وأنت، هنا في الكوخ، نعيش في سلام، نستمتع بكلّ ما علّمتَني إياه في الغابة. كلّ شيء صار له الآن معنى مختلف، أدركت معك أنني لست بحاجة لآخرين، يكفيني أن أكون بجوار شخص واحد أحبّه حقًا ليملأ حياتي. وأنا أحبّك، فلا تتركني الآن بعد أن وصلنا معًا إلى ما وصلنا إليه!»

أمسكت يدها بانفعال، وقبل أن أردّ عليها أسرعت تقول مستعطفة:

«أو على الأقل خذني معك!»

كلامها ملأ قلبي حزنًا، قلت لها وأنا أغالب دموعي وأرمق بطنها:

«لا يمكن وأنتِ في وضعك الحالي، ثم إنني.. ثم إنني سأعبر النهر. الأفضل أن تنتظريني هنا، لن أتأخر، أيام قليلة وأعود!»

وقفتْ على باب الكوخ تودّعني، وأنا أؤكد لها أنني لن أتأخر، داعبت شعرها الذي طال وبدأ يستعيد جماله القديم، وضممتها إلى صدري بقوّة حتى تأوّهت، ثم مضيت نحو الغابة. لم أترك شجرة مررت بها إلا وأوصيتها عليها، لم أترك طائرًا إلا وسألته أن يحوم حول الكوخ وينذرها قبل اقتراب الخطر، ترجّيت القرود أن تعتني بها، وتحمل إليها ثمار الغابة من كلّ الأنواع، أيّ رجلٍ سأكون إن أصاب زوجتي سوء لأني تركتها وراء رغبة غامضة تملكتني؟ أرجوكم يا أصدقائي لا تخذلوني أمامها!

مضيت عبر الغابة جهة غروب الشمس، وبعد عدّة ساعات انتهى حزام الأشجار لأجد نفسي أمام النهر من جديد. الليل كان آتيًا من بعيد، سرى صوته في أذني يحذّرني مما أنويه. شكل النهر مخيف في الليل، كأنّه فم مغارة مظلمة تعد بمصير مجهول لمن يغامر ويقتحمها، لكنّي كنت أعرف أن ذلك مظهره الخارجي، أما في الداخل فهو يملك قلبًا كالشجر.

لوّحت للأشجار التي كانت تطالعني باستغراب، وأنا أخطو في الماء، مدركًا ما عليّ فعله.

سبحت نحو الشطّ الآخر، أمواج النهر ترفعني وتخفضني، في البداية كانت هادئة، ثم عند نقطة معينة بدأت تزداد قسوة، تجذبني لأسفل بحدّة، ثم تتركني أطفو، آخذ أنفاسي بصعوبة، قبل أن تغمرني في جوف النهر من جديد، لوهلة ظننت أنني لن أنجح، النهر لن يتركني أعبر، رغم أني حييته بقلبي، وطلبت الإذن في العبور، لكن لم أسمع صوته يأذن لي.

نظري ظلّ معلقًا بالشطّ الآخر الذي أضاءته مشاعل لا أدري من أين جاءت، كأنّها منارات صغيرة. كلّما شدّني التيار بعيدًا، جدّفت بذراعيّ بقوة لأعود لمساري.

لمحت في ظلام النهر، وعلى البعد مني، شخصًا يسبح بإصرار متجهًا نحو أرض الخلاء، والأمواج تتجاذبه بعنف. هُيّئ لي أنه يشبهني، لكنّي عزوت ذلك إلى ألاعيب الظلام والنفس.

لما اشتدّ تلاعب دوّامات الماء بي، قررت الاستسلام وترك نفسي لمشيئة النهر، قلت له إنني أثق في قراره وحكمته، بلغ بي الإنهاك مبلغه، وأدركت لماذا لا يستطيع أحد الوصول بسهولة إلى أرض الخلاء. تركت نفسي للأمواج تُطوّحني كيف تشاء، وبدأ وعيي يبتعد، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا ملقى على الشطّ، وأحدهم يضغط على صدري ويحاول إسعافي. فتحت عينيّ بصعوبة وأنا أشهق، أدرت عينيّ المنهكتين فيهم. كانوا يقفون في صفوف ويتطلعون إليّ برهبة. من أين جاءوا، وكيف عرفوا بمقدمي؟

كانت هناك جثتان مسجيتان على الأرض أمامهم، فعرفت أنهم هنا للبحث عن غرقاهم.

هتف أحدهم:

«هذا ما زال حيًّا!»

اقترب شبح بدا لي مألوفًا، وعلى ضوء المشاعل رأيته، فبُهتّ. شاب يافع، لولا أن ذلك مستحيل، لجزمت بأنه الجدّ عندما كان صغير السن.

رمقني بعينين ذاهلتين، ثم ألقى بمشعله جانبًا وانحنى نحوي:

«ظنناك غرقت، أين كنت طوال تلك الفترة يا أطيب الناس؟!»

أيعرفني وأنا لم أره من قبل؟!

أحاطوا بي جميعًا، بعضهم أخذ يتحسسني غير مصدّق، أعينهم تنضح بالفرحة والمحبة. كنت مذهولاً مشتتًا، ومع أسئلتهم وإلحاحهم تشجّعت ووجدت نفسي أقول لهم:

«جئت من أرض الخلاء!»

طالعوني بشكّ، وتلوّنت عينا الشاب الذي يشبه الجدّ بالحيرة، وهتف أحدهم بحدّة:

«ما الذي تقول؟! لا أحد يصل إلى أرض الخلاء سوى الموتى!»

وتابع آخر:

«أجدادنا أخبرونا بذلك، وهم أصدق منك! لا يمكنك أن تصل إلى هناك!»

قلت لهم مبتسمًا بخجل وارتباك:

«لكنّي كنت هناك. أنتم لم تحاولوا من قبل العبور إليها. تلك الأرض تُرحّب بمن يأتيها، تعالوا معي وسترون حفاوتها!»

هتف واحدٌ منهم بغلظة:

«أنت حاقدٌ ناقمٌ على الأجداد!»

وسمعت من يقول، دون أن أراه في الظلام:

«لو كان أحدٌ سيعود من هناك لعاد أجدادنا، وهم خيرٌ منا ومنك!»

تذكّرت فجأة الدفتر الأسود، فمرت بي رعشة، وتابعت مذهولاً الشاب الذي يشبه الجدّ، وهو يغمغم بصوت خافت، كأنّه يخشى أن يسمعه أحد:

«ربما يعتقد فعلاً أنه كان هناك، ألا تذكرون ابن خالتي الذي فقد عقله فترة، وظنّ أنه عاش حياة طويلة في الجبال، بينما هو لم يغادر قريتنا؟»

أشاح بعضهم بيده بنفاد صبر، فشعرت بغصّة في حلقي، إلا أنني استجمعت نفسي وقلت لهم:

«اتبعوني إلى هناك لتتأكّدوا من صدقي، فليحضر كلٌّ منكم قاربه ويتبعني!»

بدت الدهشة في أعينهم، فأكملت مطمئنًا:

«لا تخافوا! سنبني هناك قرىً جديدة على طول الشطّ، لنتأمّل منها قرانا القديمة المهجورة هنا، ونتذكّر كيف كنّا.. لن ننسى كيف كنّا!»

تحوّل الشكّ في أعينهم إلى سخط، وبدأ بعضهم يتراجع، وصلتني همهماتهم المتذمّرة، ففكّرت أنهم غير مستعدّين، حياتهم البائسة هنا تحجب عن أعينهم الجمال الذي ينتظرهم هناك.

لمحت على الأرض، وسط ضوء المشاعل المتراقص والظلال، شيئًا

صغيرًا يجري فوق حبّات الرمل بين الأقدام، أهذه نملة أم إنني أتهيّأ وجود صديق؟

تذكّرت شعور الاكتمال الذي اختبرته مع شادية، ربما إن ساعدتهم ليتعلّموا أن يكونوا شخصًا واحدًا، يتألّمون ويفرحون معًا، يتقاسمون كلّ شيء معًا، حتى تردّدهم وشكوكهم، فلا يأسى بحملها شخص واحد بعد الآن؛ فعندها ستصل أبصارهم إلى هناك، ويأتون معي.

ساد الظلام بعد أن رحلوا جميعًا، بحثت بعينيّ عن الشاب الذي يشبه الجدّ، فوجدته يقف على بعد خطوات مني، وسط الظلام. أشرت إليه ليقترب. إن كان هو من أظنه، فسيشقى بي، وسأشقى به لأني أعلم ما ينتظره. شعرت بالشفقة عليه، لا أدري أأبعده عني أم أقرّبه وأحاول تجنيبه المصير الذي يترصّده.

بقينا وحدنا على الشطّ، وامتلأت نفسي رهبة. ما زال أمامي مشوار طويل، وربما لا أعود قريبًا إلى شادية كما وعدتها.

التفتُّ إلى الشطّ الآخر وسرحت ببصري، إن كان الجدّ هنا صغير السن، فهل يعني هذا أن شادية لم تولد بعد، أم ما زالت تنتظرني هناك؟ كم سنة عليّ الانتظار لأراها؟

ملأني الهمّ، ولم أستطع تمييز شيء هناك إلا قمم الأشجار التي بدت لي من مكاني كأقزام صغيرة. انزاحت سحابة، فتبدّى القمر وراءها فتيًا جميلاً، على ضوئه الفضّي لمحت هناك شيئًا صغيرًا كالنقطة يطير فوق الأشجار، دقّقت النظر، وتعرفت عليه بقلبي، فأخذت أُلوّح له بذراعيّ وأنا أصرخ من الفرحة. كان من المستحيل أن ينتبه

إليّ، لكن رغم ذلك خُيّل لي أنه رآني وعرفني، وأنه يطير فوق النهر قادمًا إليّ، فوجدتني أهمس لنفسي، والانفعال يجتاحني:

«لن تكون هناك سلحفاة!»

استفهم مني الشاب بدهشة:

«أقلتَ شيئًا؟!»

التفتُّ إليه وهتفت بفرح طاغٍ:

«لم تذكر أنني كان معي عصفور، الدفتر الأسود يمكن أن يتغيّر!»

رمقني غير فاهم، فأكملت بشجن:

«قد أعود بشادية ذات يوم!»

ازدادت ملامحه حيرة، فلم أهتم، تركته وانطلقت أركض على طول الشطّ وأنا أقفز وأضحك وأُلوّح للقادم الصغير بذراعيّ، أقول له تعالَ ولن أعاتبك على الغياب، تعالَ وسنخوض الطريق معًا.. وهو يقترب سريعًا نحوي.

٢٥ مارس ٢٠١٧
البلينا – المقطم

هذه الرواية ما كانت لتخرج بالشكل الذي هي عليه الآن لولا محبة ومعونة العديد من الأصدقاء..

مروة سمير؛ قارئتي الأولى دومًا، القلب الذي يرى ما أكتب قبل الجميع، تَلوّن الإعجاب في عينيها هو ما يحدّد إن كنت سأستمر أم لا، حماسها هو الذي يحدّد إن كنت سأنشر هذا النّص أم سأكتب غيره؛ دُمتِ لي أبدًا.

محمد صادق، مروة مجدي، رهام راضي؛ فضلكم على هذه الرواية، وعليّ، أكبر من أن تحصيه الكلمات، حماسكم الجارف ودعمكم وتشجيعكم هو الذي منحني الثقة في لحظات عدم اليقين، ممتن لكم بشكل تعجز الكلمات عن تصويره.

الأصدقاء الأعزاء الذين قرأوا معي الرواية طوال مراحل كتابتها: إيمان عبد المجيد، ميسرة الدندراوي، منتصر أمين، إسلام البنا، ماجد شيحة، هدى أبو زيد، سارة البدري، شريف ثابت، داليا غنيم؛ أتعبتكم معي كثيرًا، كلّي امتنان على قراءاتكم الواعية وملاحظاتكم الوافية التي فرقت معي كثيرًا، لفتم انتباهي لنقاطٍ عديدة غابت عن ذهني، وحماسكم في أثناء القراءة كان يلهمني ويملأني شغفًا، فأعمل على تجويد العمل بطمأنينة وثقة مدفوعًا بطاقة حماسكم.

والشكر، كلّ الشكر، لجميع القراء الأعزاء الذين قرأوا «ترنيمة سلام» و«عشق»، وكانوا يُلحوّن عليّ في السؤال لأكثر من سنتين بخصوص روايتي الثالثة، محبتكم تعني الدنيا بالنسبة لي، كنت أضع اهتمامكم ولهفتكم أمام ناظريّ طوال الوقت وأنا أكتب هذه الرواية، كلّ كلمة وكلّ حرف مكتوب بمداد محبتكم، وأتمنى بصدق ألا أكون قد خذلتكم. أحبكم، وأنا محظوظٌ بكم.

للتواصل مع الكاتب:

goodreads: www.goodreads.com/book/show/35391899

facebook: www.facebook.com/Majeed2014

twitter: www.twitter.com/Ahmad_AbdMajeed

instagram: www.instagram.com/ahmad_abdul_majeed

E-mail: ahmadxmajeed@live.com

#أحمد_عبد_المجيد

#التابع